كتابات المستشرق الروسي ألكسندر آداموف عن البصرة منذ الفتح حتى نهاية العصر العباسي الأول من خلال كتابه ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها

م. د. سندس بندر خزعل

مركز دراسات البصرة والخليج العربي / جامعة البصرة

Email: sundus.khazel@uobasrah.edu.iq

الملخص

تكتسب مدينة البصرة أهمية تاريخية كبيرة في التاريخ الإسلامي؛ وذلك لموقعها الاستراتيجي حيث تقع في جنوب العراق عند ملتقى نهري دجلة والفرات، مما جعلها مركزاً تجارياً مهما بين الشرق والغرب، مصرت البصرة على يد المسلمين الأوائل عام ١٤ هـ /٦٣٥م، وكانت إحدى المعسكرات العسكرية الرئيسية للجيش الإسلامي في فتوحاته، وسرعان ما أصبحت البصرة مركزاً للعلوم والآداب حيث ظهر فيها العديد من العلماء والفقهاء المشهورين، وأدت البصرة دوراً رئيساً في الفتوحات الإسلامية في الشرق، حيث كانت نقطة انطلاق للجيوش التي توجهت لفتح بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر، واحتوت البصرة على العديد من المكتبات العامة والخاصة مما جعلها مستودعاً علمياً مهماً في العالم الإسلامي .

الكلمات المفتاحية : الاستشراق، البصرة، ولاية البصرة، الكسندر آداموف.

The russian orientalist alexander adamov writes about basra from the conquest to the end of the first abbasid era through his book wilayat al-basrah in its past and present

Lect. Dr. Sondos Bandar Khazal
Basra and Gulf Studies Centre / University of Basrah
Email: sundus.khazel@uobasrah.edu.iq

Abstract

The city of Basra has a historical importance as Basra in Islamic history due to its strategic location as it is located in southern Iraq at the confluence of the Tigris and Euphrates rivers, which made it an important commercial center between the East and the West. Basra was conquered by the early Muslims in 14 AH / 635 AD and was one of the main military camps of the Islamic army in its conquests. Basra quickly became a center of science and literature, where many famous scholars and jurists appeared. Basra played a major role in the Islamic conquests in the East, as it was a starting point for armies that headed to conquer Persia and Transoxiana. Basra contained many public and private libraries, which made it an important scientific repository in the Islamic world.

Keywords: Orientalism, Basra, Basra State, Alexander Adamov.

المقدمة

كانت مدينة البصرة وما زالت تحتل أهمية كبيرة إقليميا وعالمياً ولاسيما في العصور الإسلامية، إذ كانت إحدى الأمصار السبعة، ومفتاح المشرق وعين العراق ومنها انبثقت أولى العلوم الإسلامية، لذا نالت اهتمام الباحثين قديماً وحديثاً، ومن أولئك كان المستشرقون الذين اهتموا بدراسة أحوال البصرة على الصعد كافة، إذ كانت البصرة تتمتع بأهمية متميزة؛ لذا فتحت فيها القنصليات الأجنبية ومنها القنصلية الروسية وكانت مناسبة القنصل الروسي ألكسندر آداموف، أن يتناول البصرة بدراسة عبر التاريخ إلا إنه لا يعلم زمن كتابته، هل قبل قدومه للبصرة أم بعدها؟

جاءت أهمية تسليط الضوء على ما كتبه المستشرق الروسي حول معلومات وأحداث عن مدينة البصرة في كتابه ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها في عام ١٩١٢ م، وإن هذه الأهمية لا تكمن في ملاحظاته المباشرة عن المدينة التي عمل فيها قنصلا في نهاية القرن التاسع عشر لبلاده روسيا القيصرية؛ إنما جاءت الأهمية في ما شمله كتابه كونه كتابته هي حصيلة لاطلاع المؤلف ألكسندر آداموف على عدد واسع من المصادر الأجنبية التي تناولت الأحداث في مدينة البصرة، والذي يهمنا هو ما سجله عنها في العصر الإسلامي، فنجد المؤلف تحدث عن النواحي الجغرافية والإدارية والصحية وأوضاع السكان وغير ذلك في كتابه ولذا؛ يعد الكتاب أشبه بالموسوعة منه بالكتاب العادي، وحاولت في بحثي أن أركز على أبرز الأحداث التي ذكرها المستشرق الروسي في العصر الإسلامي لكون ذلك يهمنا لمعرفة تاريخ مدينتنا ومدى أهميتها عبر العصور وما لها من دور في الحياة الاقتصادية والسياسية في ذلك التاريخ، إذ تعد من أقدم المدن تأريخياً ولها دور حضاري كبير وواسع.

أما خطة البحث فقد شملت مقدمة ومبحثين، المبحث الأول: البصرة منذ الفتح والعصر الراشدي والأموي، والمبحث الثاني: البصرة في العهد العباسي الأول، وخاتمة.

واعتمدت على أغلب المصادر العربية الإسلامية مثل المقدمة لابن خلدون وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير والفهرست لابن النديم، وعمدة الطالب لابن عنبة وغيرها من المصادر العربية الإسلامية التي تمدنا بمعلومات وافية عن تاريخ مدينتنا، وقد اعتمدت عليها لتفنيد آراء المستشرق أحيانا وأحيانا أخرى لتصويب بعض الوقائع وتدقيقها مع المصادر التراثية والتي اعتمدها ألكسندر آداموف بصورة مباشرة أو عن طريق النقل عن مستشرقين آخرين.

وتم الاعتماد على منهج التحليل والوصف لما ذكره المستشرق من أحداث ومعلومات عن مدينة البصرة، أما المعوقات فهي تتمثل كون المصادر التي اعتمدها المستشرق باللغة الإنكليزية والتركية ولم أعثر عليها.

المستشرق ألكسندر آداموف (١)

يعد إسكندر آداموف أحد دبلوماسي روسيا القيصيرية، عمل قنصلا لروسيا في ولاية البصرة، وكان ذلك في نهاية القرن التارسع عشر وبداية القرن العشرين كما أنه عين قنصلاً لبلاده في عام ١٩٠٢ م على مدينة تبريز.

إن شغله لهذا المنصب إشارة لا تقبل التأويل بأن ألكسندر آداموف كان يمتلك المؤهلات الثقافية والعلمية والسياسية؛ ما يؤهله لشغل مثل هذا المنصب المهم في الوقت الأهم و– بالتأكيد– كان للموماً إليه مثل الكثير من المستشرقين ممن سبقوه أو جاءوا بعده والذين كان هاجسهم الأكبر هو السياسية ومصالح بلدانهم هي من قادتهم للانخراط في مجال الاستشراق في المشرق الإسلامي.

ولا يجب إغفال واقع مهم بأن المستشرق ألكسندر آداموف حينما شغل منصب قنصل روسيا في البصرة كانت تلك من أصعب فترات الدولة العثمانية حيث كانت تعيش عدم استقرار سياسي واقتصادي واجتماعي، وهو ما انعكس على معظم ولاياتها ومنها البصرة، فتلك الدولة كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة وكانت الدول الاستعمارية الكبري ومنها روسيا تتنافس على تقاسم ممتلكاتها ففقدت الكثير من مساحتها لمصلحة تلك الدول، ولا يخفى على أي دارس أن روسيا القيصرية كانت من الدول العظمى الاستعمارية حينها وإن افتتاحها قنصلية في ولاية البصرة كان من باب التنافس للوصول إلى المياه الدافئة في الخليج العربي وتنافسها كان مع الدول الاستعمارية التي وجدت موطأ قدم لها هناك بصفة خاصة وفي المشرق الإسلامي بصفة عامة كبريطانيا وفرنسا، ولأهمية موقع البصرة في شمال الخليج العربي وكونها تشكل مفترق طرق باتجاه مناطق المشرق العربي ضمن الدولة العثمانية وباتجاه بلاد فارس وبين الهند التي تعد محمية من محميات بريطانيا، هذا بالإضافة إلى الإشارات الطبيعية حول الثروات النفطية والمعدنية في ولاية البصرة العثمانية.

أما كتابه ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها الذي صدر في سانت بطرسبرغ عام ١٩٦٢ م الذي يعد له أهمية خاصة، وتكمن هذه الأهمية من حيث معلوماته وملاحظاته المباشرة ومعايشته لبعض الأحداث التي جرت في مدينة البصرة بالأخص في أيام الدولة العثمانية، لا يعتبر هذا الكتاب نتاجه الوحيد؛ إنما له مقالة منشورة عن التجارة الدولية في الخليج العربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في إحدى المجلات العراقية.

يمكن القول إن ألكسندر آداموف سياسي يمتلك خلفية تاريخية وأسلوبا أدبيا مكنه من الكتابة العصرية التي تتوافق مع نهج حكومته روسيا القيصرية، فجمع بين العلمية المهنية وبين السياسة من خلال عمله كقنصل في البصرة وكتابته لمؤلفه الذي يعتبر أساسا عن تقارير دبلوماسية كان يرسلها لحكومته وليطبعها لاحقاً بعد التوسع في مضمونها ككتاب تاريخي، ولكن المصلحة السياسية كانت في المقدمة لما كانت ترجوه حكومته.

أهمية الكتاب

يعد كتاب ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها من المصادر المهمة في دراسة حقبة مهمة في تاريخ البصرة بشكل خاص، ولمعرفة تاريخ العراق الحديث بشكل عام، وذلك لما شمله الكتاب من معلومات مهمة شملت جميع النواحي.

وتكمن أهمية الكتاب فيما ضمته أوراقه مجمل تاريخ البصرة كما هو معلن في العنوان، إلا أن صفحاته ربطت تاريخ هذه المدينة بالمناطق التي تكونت منها، بالإضافة إلى المناطق المحيطة بها، ومما زاد في قيمة الكتاب أن ألكسندر آداموف اعتمد في طرحه للمعلومات على مصادر أجنبية عديدة سواء أكانت إنكليزية أو فرنسية أو روسية بالإضافة إلى المصادر العثمانية المعروفة بالسالنامات.

وإن تأليف ألكسندر آداموف للكتاب، لقد وضح المؤلف أن السبب من وراء تأليفه هو جمع كل المادة المتعلقة بتاريخ المنطقة التي تعد مادة تاريخية مهمة، لما هو مبعثر في الكتب المختلفة وعرضها في كتاب واحد [٢].

وكما حاول المؤلف أن يسد ثغرة مهمة في المصادر للمكتبة الروسية التي على ما يبدو أنها تفتقر إلى مثل هذا المصدر المتعلق بتاريخ العراق وتاريخ مدينة البصرة، لعبت مدينة البصرة دوراً في تاريخ المنطقة على مر العصور حتى وصلت رواية تأثيرها في العصر الحديث.

وعلى ما يبدو أن ألكسندر آداموف خلال مدة عمله كقنصل في البصرة، قد لفتت هذه المدينة انتباهه لما تميزت به من خبرات وقدرة وأهمية تجارية دفعته إلى محاولة تأليف هذا الكتاب عن البصرة وعدها– من وجهة نظره– الجزء الأساس من تاريخ العراق[٣].

و–على ما أعتقد– أن ألكسندر آداموف كان يرى أن البصرة تعاني من الإهمال في الكتابة عن تاريخها [٤].

مصادر الكتاب

اعتمد المؤلف ألكسندر آداموف في كتابه ولاية البصرة على العديد من المصادر الأجنبية وقد تنوعت هذه المصادر ما بين الروسي والفرنسي والإنكليزي والتركي، لكنه لم يذكر أنه اعتمد على المصادر العربية خاصة فيما نقله من أحداث في البصرة في العصرين الأموي والعباسي الأول ولا نعرف السبب لعدم استخدامه أي مصدر عربي وما هو الدافع وراء النقص الكبير في المصادر العربية والإسلامية، وقد يكون ذلك يعود إلى عدم إلمامه باللغة العربية أو أنه لم يهتم لأن يطلع على المصادر والكتب العربية والإسلامية فليس من المعقول أن يكون اعتماده في الحديث عن مدة مهمة من تاريخ البصرة الإسلامية ألا وهي موقعة الجمل وغيرها من أحداث للمدينة على السالنامة العثمانية الخاصة بولاية البصرة التي كانت من أهم المصادر التي رجع إليها المؤول. [٥]

وكما ذكر المترجم أن المؤلف قد تجاهل الإشارة إلى المصادر التي أخذ منها معلوماته بشكل غير منظم وبعيد عن الأصول المتبعة في هذا الشأن، وقال حاولنا أن نترجم المصادر الروسية إلى اللغة العربية حرفياً تلافياً لما قد يحدث من مشاكل في الطباعة، وذكر المترجم أنه حاول الإشارة إلى المصادر التي استخدمها المؤلف وفق أسلوب علمي مثلما هو متعارف عليه بين الباحثين[٦]. أن أهم ما يميز البصرة دورها الاقتصادي حتى قيل إن العراق عين الدنيا والبصرة عين العراق.

المبحث الأول/ البصرة منذ الفتح والعصر الراشدي والأموي

أرى أن المستشرق الروسي أهمل ذكر شيء عن تسميات البصرة في العصر الإسلامي التي كانت مختلفة منذ تأسيسها فقد عرفت بالخُريبة [٧] والتسميات الأخرى التي يجب التحدث عنها.

ذكر المستشرق ألكسندر آداموف عن واقع البصرة وكيف اتخذت منها قاعدة عسكرية لفتح البلاد وانطلاقاً منها لفتح بلاد فارس فيذكر "لقد فتحت الجحافل العربية منذ عام ٦٣٣ م أي في عهد الخليفة أبي بكر الصديق للرسول (صلى الله عليه وآله) الإحساء [٨]، ومن هناك بدأت تشن غارات شديدة على جنوب العراق[٩]... ومن أمهر القادة العسكريين هو خالد بن الوليد الملقب (بسيف الله)، إذ خاض عدداً من المعارك الظافرة ضد القوات الفارسية واستطاع في وقت قصير أن يطهر ضفتي الفرات كليهما في مجراه الأدنى"[١٠].

إن هذه البداية صحيحة عن فتح البصرة أيام الخليفة الأول وإكمالها في أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ولكنه لم يذكر غارات المثنى بن حارث الشيباني لأنها كانت هي الأولى وقبل وصول قوات خالد بن الوليد إليها، هنا يمكن القول للرد على المستشرق ألكسندر آداموف إن الذي

تولى الغارة على مسلحة الفرس في الخريبة هو سويد بن قطبة الذهلي [١١]، ولما مر خالد بن الوليد في طريقه إلى العراق سنة ١٢ هـ أيام الخليفة أبي بكر [١٢] أعان سويداً حتى تمكن من فتح الخريبة، وقد اختلف هل فتحها عنوة أم صلحاً وذكر البلاذري ينفي أن يكون خالدا قد مر بالبصرة ويرى أنه لما فرغ من أمر اليمامة والبحرين قدم المدينة ثم سار إلى العراق عن طريق [١٣] (فيد)[١٤] والثعلبية.[١٥]

ويظهر أن فتح الخريبة ترك أثرا كبيرا في معنويات المسلمين وهزيمة الفرس فقد هابت مصالح الساسانيين المسلمين لذا؛ طلب سويد من الخليفة عمر بن الخطاب إمداده ببعض الجند، فأمده بشريح بن عامر وأوصاه أن يكون ردءا للمسلمين، فمضى شريح إلى الأهواز [١٦]، وكانت هناك قوات للفرس إلا أنه قتل في معاركه معهم [١٧].

عندها اتخذ الخليفة قرارا بإرسال الصحابي عتبة بن غزوان فقد سار عتبة إلى البصرة في[١٨] ربيع الأول سنة ١٤ هـ، وتباينت الروايات في عدد الجيش الذي كان يقوده عتبة ما بين ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً وهناك من قال بلغ خمسمائة [١٩] ، وهناك من يوصلها إلى ثمانمائة رجل [٢٠]، واستمر الخليفة يوجه الناس إلى اللحاق بعتبة خاصة بعد وصول أنباء عن فتوحه وعن الغنائم التي حصل عليها المسلمون.

وذكر المستشرق ألكسندر آداموف فقال: "وعلى الرغم من هذا التضاؤل في أهمية البصرة فإنها أخذت تتحول بسرعة من مجرد معسكر حربي إلى مدينة آهلة كثيرة السكان "[٢١].

إن البصرة بعد تمصيرها لم ينتقل عنها جميع المسلمين وأنه قد بني فيها اثنتان من الدساكر[٢٢] كانت نواة للسكن فيها، وقد امتدت بالنمو حتى غدت محلة من محالّ البصرة لذا؛ وصفها السمعاني بأنها (محلة مشهورة بالبصرة). [٢٣]

وقد تحولت البصرة إلى مدينة سكنية بعد أن سكنها الكثير من العرب والوافدين إليها مع الجيوش العربية والاستقرار بها، وظهرت فيها أسواق واسعة، كما بنيت فيها المساجد والمدارس الملحقة بها وبدأت الأكواخ المبنية من الطين تقل تدريجياً أمام البنايات المشيدة من الطابوق.[٢٤]

ومن هذا يتضح لنا أن البصرة بدأت تنمو وتنهض ولم تتضاءل في أهميتها، بل العكس ازدادت اتساعاً وتطوراً عمرانياً.

وذكر المستشرق ألكسندر آداموف عن التغيرات التي جرت في مظهر البصرة الخارجي لا سيما من قدوم المستوطنين المستمر من شبه جزيرة العرب ومع هذه زيادة ظهرت فيها أسواق واسعة

تحوي صفوفا من المحال والدكاكين الحرفيين- خصوصا- الفرس الذين أخذوا يتوافدون إلى هناك وكما ينبت فيها المساجد والمدارس الملحقة بها وبدأت الأكواخ المبنية من الطين تتراجع أمام البناء الجديد.[٢٥]

وما ذكر عن تغييرات التي جرت في البصرة فإنها كانت صحيحة بالإضافة إلى التغيير الذي بدأ يظهر في مكوناتها- خصوصا- بعد أن كان ظهور العرب يعتبر خاصية لها لكن هنا بدأ الفرس يزدادون نتيجة الاستقرار الكثير منهم في المدينة، ولقد انعكس ذلك على البصرة لأنهم كانوا ضد السلطة العربية دائماً وإنما حولوا المدينة إلى مكان للتمردات والانتفاضات المعادية للسلطة.

وأصبحت البصرة ذات نشاط سياسي منذ عهد الخليفة عثمان يتكلم المستشرق ألكسندر آداموف عن نسب ومصاهرة عثمان للنبي (صلى الله عليه وآله) وانتمائه إلى البيت الأموي وبعد أن وزع المناصب العليا على أقربائه، فكان البصريون أول من رفعوا لواء العصيان ضده [٢٦] ولكن المستشرق لم يذكر ولاة البصرة الذين كان لهم دور في المدينة من حيث تنظيم المدينة إداريا والاهتمام بها ومن أهم هؤلاء الولاة؛ أبي موسى الأشعري [٢٧]ومن جاء من بعده من الولاة ابن عامر[٢٨] لأنهم كانوا أكفأ الولاة لإدارة ولاية البصرة، وقد كانت لولاية البصرة وأجنادها ولابن عامر نفسه فتوح عظيمة بعد ولايته مباشرة، وقد اكتسبت البصرة في أيامه مكانة خاصة بين الولايات الإسلامية لفتت نظر الخليفة عثمان وتوسعها في مختلف المجالات، فأصبحت مركزاً إداريا مرموقاً، وتدار منها العديد من المناطق الإسلامية .[٢٩]

انتقل المستشرق ألكسندر آداموف إلى مقتل الخليفة عثمان ودور البصريين في ذلك فقال: "وبعد عامين من هذه الأحداث أي عام ٦٥٦ م يسجل التاريخ قدوم فصيل من البصريين والكوفيين إلى المدينة [٣٠] نفسها حيث شاركوا بشكل فاعل في العصيان الذي أعقب ذلك وانتهى بمقتل الخليفة عثمان"[٣١].

ويستمر المستشرق في ذكر ما لعبه المتمردون دوراً بارزاً في اختيار بديل للخليفة المقتول، إذ كان البصريون قد رشحوا طلحة وهو أحد أصحاب الرسول (صلى الله عليه وآله) المقربين،... وكما ذكر أن البصريين والكوفيين تحولوا إلى جانب الإمام علي (عليه السلام) فانتهت المسألة لصالحه[٣٢].

ومن أشهر الأحداث التي تناولها المستشرق ألكسندر آداموف واقعة الجمل [٣٣] التي تعد من أهم الوقائع في تاريخ البصرة في التاريخ الإسلامي.

قال المستشرق الروسي: "لقد حدث بين أنصار علي وأنصار خصومة بالقرب من البصرة موقعة أطلق عليها اسم (موقعة الجمل) وذلك لأن سقوط الجمل الذي كانت عائشة تشجع أنصارها من على ظهره، قرر نتيجة المعركة لمصلحة الإمام علي (عليه السلام) .[٣٤]

إن ما تطرق إليه المستشرق ألكسندر آداموف من واقعة الجمل كانت إشارات فقط إلى المعركة التي كانت قد وقعت على أرض البصرة بعد أن تفاقمت الأحداث وتطورت قادها في النهاية إلى الاختيار العسكري بعد أن جاء الإمام علي (عليه السلام) إلى الخلافة وقد حاول كل من طلحة والزبير بعد أن بايعاه فحاولا استخلاص السلطة منه فذهبا لذلك إلى مكة وظهرا بمظهر المطالبين بدم الخليفة المقتول واستطاعا أن يتقربا ويجذبا عائشة إلى جانبهما وجمعوا أنصارا أغلبهم من الأمويين وتحركوا بهؤلاء جميعاً إلى البصرة.[٣٥]

بينما كان الإمام علي (عليه السلام) مع فصيل ذي عدد قليل وصلت الإمدادات العسكرية من أهل الكوفة بواقع ٦٠٠ رجل ودارت رحى الفتال في الخريبة ٣٦ هـ/ ٦٥٦ م نهب أهل البصرة وأقاموا الجمل وعائشة في هودجها، وتشير الروايات إلى طلب الخليفة الإمام علي (عليه السلام) عدم الاستعجال في القتال وإبقاء باب الصلح مفتوحاً .[٣٦]

بدت بشائر الصلح تلوح بالأفق، فخطب الإمام علي (عليه السلام) بالناس حاثاً لهم على نبذ الفرقة والتذكير بالإسلام والارتحال معها إلى الحجاز مجدداً غير أنه استثنى من الرحيل من شارك في قتل الخليفة عثمان أو أعان القتلة، ويبدو أن هذا الأمر لم يكن يرضي تلك الفئة التي اشتركت أو دعمت أو شاركت في قتل الخليفة.[٣٧]

لقد حاول البعض إثارة الفتنة كابن سبأ والنخعي والقتال حال اجتماع تحالف الجمل والخليفة الإمام علي (عليه السلام) و– بالفعل– أوقعوا الفتنة بالصفوف وأداروا رحى القتل ظناً وفتنة وشروراً، وابن السوداء في تحريض مستمر، وتقاتل الفريقان وكثر القتل وعندما وجد تحالف الجمل قد ضعفت كفته وقتل طلحة وهزيمة الزبير بادرت عائشة بمناولة كعب بن سوار قاضي البصرة مصحفاً للدعوة للتحكيم، فقتله أتباع ابن السوداء ووصلت الرماح إلى هودج عائشة وأصبحت الموقعة بين شد وجذب، واتجهت الأنظار لقتل الجمل بينما في الوقت الذي دافع رجال بني ضبة للدفاع عن الجمل حتى مات منهم ٤٠ رجلا ثم تناوب على حمايتها رجل من قريش كعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم ومحمد بن طلحة السجاد، وغيرهم الكثير حتى سقط الجمل وانهزم اتباع تحالف الجمل، فأكرم الإمام علي (عليه السلام) عائشة وكان عدد القتلى من الفريقين ما يقرب من ١٠،٠٠٠ مسلم.[٣٨]

وبذلك نجحت الفرق القتالة كالسبئية في إثارة النزاع والقتال بين المسلمين بطريقة وصفت بالغوغائية .[٣٩]

إن هذه الأحداث والأخبار من المواضيع المهمة التي أولاها المستشرقون اهتماماً بالغاً.

البصرة زمن الإمام علي (عليه السلام)

قبل أن نتطرق إلى الخوارج وبدايات الفرق التي ركز المستشرق الحديث عنها، لا بد من أن نذكر كيف كان موقف أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بشيء من التفصيل لأن أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) يعد أول خليفة يزور البصرة وقد تركت زيارته آثاراً بعيدة المدى في البصرة رغم قصر الزيارة والظروف المعقدة التي أحاطت بخلافته[٤٠] بينما لم يوضحها المستشرق ولم يذكر أهميتها.

إن الذي يهمنا هنا أن نبين مدى أهمية المدينة حينما دخلها أمير المؤمنين وما هي الأعمال التي قام بها الإمام في البصرة فقد كان من بين إصلاحاته في البصرة تصحيح اتجاه قبلة المسجد لأنها كانت منحرفة عام ٣٦ هـ [٤١]، أولا: تنامت الحركة الثقافية في مسجد البصرة بعد زيارة الإمام علي (عليه السلام) حيث ألقى عددا من الخطب في هذا المسجد وأجاب الكثير من الناس على أسئلتهم المتنوعة، ثانياً: حفر بئراً في المسجد.[٤٢]

فبعد انتهاء واقعة الجمل رقى المنبر قائلاً: يا أهل البصرة... إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول تفتح أرض يقال لها البصرة أقوم أرض الله قبلة قارئها اقرأ الناس ومعابدها أعبد الناس.[٤٣]

وذكر أن الإمام علي (عليه السلام) تحدث عن أشياء سبق بها الفلكيين في التوصل لبعض المسائل الفلكية كإشارته إلى أن منطقة الأبلة هي أبعد موقع في الأرض عن السماء.[٤٤]

هنا تبين لنا مدى أهمية المدينة وأهمية دخول الإمام علي (عليه السلام) إليها، ولم يذكر ذلك المستشرق ولم يشر إليه بشيء، إذ لم يعطِ عناية كبيرة بالحروب التي دارت في حاضرة الدولة العربية الإسلامية بوصفها جزءاً من التاريخ الإسلامي من جهة، وجهة أخرى لأنها تشكل انعطافة خطيرة في مسيرة الدولة العربية الإسلامية، والتي أراد الساعون إليها تمزيق وحدة المسلمين وتفريق شملهم تحت حجج واهية، وقد تناول المستشرق الواقعة بغية معرفة صدى معركة الجمل التي تعد أولى المعارك التي كان فيها للسيف الحكم الفصل في محاولة الوقوف بوجه كل من أراد الرجوع بالإسلام إلى الأحقاد الجاهلية.

وإن أغلب المستشرقين قد اعتمدوا على الروايات المدونة في مصادرنا الإسلامية وتأثروا بها وأبدوا رأيهم في بعض منها وقد تأثروا أيضا بآراء بعضهم البعض.

وتطرق المستشرق ألكسندر آداموف إلى فرقة الخوارج [٤٥] فقال: "لقد اكتفى هؤلاء في البداية بالدعوة إلى أن الخليفة الذي يحيا حياة لا تتميز بالتقوى والذي يخرج على تعاليم الدين يخضع للشك، وللجماعة الحق في أن تختار بدلاً منه شخصاً أكثر استحقاقاً، حتى لو لم يكن من قبيلة قريش التي ينتمي إليها النبي (صلى الله عليه وآله)" [٤٦].

هنا يتطرق المستشرق إلى تعاليم الخوارج ومبادئ عقيدتهم، ولكنه اختصرها بشدة وهي أنهم يختارون خليفتهم حسب تمسكه بالدين والعقيدة وليس على نسبه وقرابته للرسول (صلى الله عليه وآله).[٤٧]

وكما ذكر ألكسندر آداموف فقال "وقد تحولت هذه الدعوات المتواضعة بمرور الزمن إلى تعاليم تؤكد السيادة المطلقة للجماعة الأمر الذي أعطى فرقة الخوارج صيغة الديمقراطية بحتة وجعلها مفهومة ومقبولة في نظر البدو الذين يحبون الحرية، فانظم هؤلاء بأعداد كبيرة إلى تلك الفرقة الأمر الذي أدى إلى أن يسودها الطابع العربي، كذلك وجد الخوارج اتباعاً عديدين لهم بين ممثلي الطبقات العاملة الذين جذبهم شعار الأخوة والمساواة الذي أصبح فيما بعد المبدأ الأساس في تعاليم الخوارج.[٤٨]

لقد أخطأ المستشرق ألكسندر آداموف هنا باعتبار الخوارج دعوة امتازت بالديمقراطية، وكما لم يغلب على هذه الفرقة الطابع العربي.

لقد كانت حركة الخوارج من الحركات التي اعتمدت في ظهورها على عاملين أحدهما ظاهري وهو المادي خاصة بعد تواصلت الفتوحات في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وكانت تدور غنائم كثيرة مكنت من حل المشاكل الاقتصادية بوصفها كانت تقسم بالتساوي بين المتشاركين في هذه الحروب بغض النظر عن تاريخ قدومهم آلة الكوفة، وعندما تولى الخليفة عثمان بن عفان قلت الفتوحات بالكوفة وغيرها من الأمصار الإسلامية، ثم توقفت ابتداءً من سنة ٣٠ هـ/ ٦٥٠ م، وبوقوفها استغل الخوارج بروز المشاكل على السطح.[٤٩]

أما العامل الآخر المخفي وهو الجانب العقائدي إذ استغل مؤسس الحركة اليهودي عبد الله بن سبأ المعروف بابن السوداء بعد اهتمام الخلفاء لا سيما الخليفة عثمان بن عفان بتحفيظ القرآن الكريم وحرصه ليبقى في صدور العديد من المسلمين وأغلب من حفظ القرآن استشهدوا في

الفتوحات ولذلك شجع الخليفة على تحفيظ القرآن من قبل الصحابة أمثال عبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري وتفسير آياته مما أدى إلى تكوين مجموعة من القراء وصار لهم إشعاع ديني حتى وصلوا إلى الكوفة لأداء مهمتهم [٥٠] أي السفر إلى الكوفة لتعليم القرآن الكريم بها، وتفسير آياته، وقد وجد المتسلقون ضالتهم المنشودة في تدمير الإسلام بالانضمام إلى القراء، فحفظوا القرآن الكريم وتبحروا في الفقه والمسائل الدينية والدنيوية التي تهتم بالحياة السياسية العامة [٥١]، واستخدموا مجموعة من الشعارات منها التكبير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمطالبة باستبدال الولاة غير العادلين وعزلهم، فوثق الناس فيهم والتفوا حولهم باعتبارهم أجلاء [٥٢]، ضمت هذه المجموعة العديد من الشخصيات التي صارت خوارج فيما بعد أمثال حمزة بن سنان الأسدي وحرقوص بن زهير السعدي وغيرهم.

بدأ الخوارج من القراء بفكرة النقد لسياسة الدولة ثم تحول هذا النقد إلى المعارضة والرفض لسياسة الخليفة، والعداء لقبيلة قريش عامة وللإسلام خاصة من خلال فرض آرائهم ومواقفهم على الخليفة، وهكذا أدى الخوارج دوراً كبيراً في خلق فتنة بين المسلمين نتيجة لمكانتهم الدينية التي حصلوا عليها باعتبارهم شيوخا أفاضل من القراء استقطبوا مجموعة مهمة من سكان الكوفة ثم أثاروا فكرة النقد لسياسة الدولة، واعتبروا أن التدخل في شؤون الدولة والمشاركة في تحديد مصير الأمة هو من حقهم كمسلمين، و– بالفعل– نجحوا في خلق فتنة أدت إلى قتل الخليفة عثمان، وعصفت بالدولة الإسلامية عامة، وقد تلقف المستشرقون ما نقل في التاريخ الإسلامي وقاموا بتوسيع نشر روايات غير عادلة ومحرفة وتأثر بها الكثير من المؤرخين والمفكرين المحدثين، فلم يمحصوا في الروايات ويحققون في سندها ومتنها فانتشرت بين المسلمين.

لقد حاولنا فيما تقدم أن نلخص شيئاً عن الخوارج الذين خرجوا قبل تولي الإمام علي (عليه السلام) وأن أقدم فرقة لهم خرجت أيام الرسول (صلى الله عليه وآله) على يد (ذو الخويصرة التميمي) الذي اتهم النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بالظلم في توزيع الغنائم بعد إحدى الغزوات[٥٣] .

لكن كان خروج الخوارج الأوائل هم من ثار ضد الخليفة عثمان وقد تمردوا على الإمام علي (عليه السلام) لاحقاً لقبوله التحكيم لتسوية النزاع مع معاوية في معركة صفين وأكدوا (أن الحكم لله وحده) وهذا كان شعارهم وأن المتمردين أمثال معاوية يجب قتالهم والتغلب عليهم وفقاً للأوامر القرآنية وبعد تمردهم على الإمام علي (عليه السلام).

ولكن الإمام علي (عليه السلام) وجه لهذه الفرقة التي خرجت عن العقيدة جيشاً كبيراً والحق بهم هزائم فادحة في معركة النهروان عام ٣٨ هـ/ ٦٥٨ م.

وتفرقوا بعدها في أنحاء مختلفة من العراق وإقليم فارس وعربستان وبعدها.

قتل الإمام علي (عليه السلام) على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم الذي سعى للانتقام.(٥٤)

ويستمر المستشرق بالحديث عن الخوارج من غير أن يركز عن أحوال البصرة أو عمارتها أو التطور الفكري والعلمي فيها.

وذكر البصرة المستشرق ألكسندر آداموف أيام معاوية فقال: "لقد ازدادت حراجة الوضع بالنسبة للخليفة الجديد نتيجة لرفض والي فارس زياد الذي عينه الخليفة السابق في هذا المنصب مبايعة معاوية وأخذ يثير بمساعدة أولاده اضطرابات في البصرة، ولكن معاوية الداهية لم تتملكه الحيرة، في هذا الوضع الصعب، فقد بادر إلى تعيين زياد هذا والٍ على البصرة وهو مقتنع بأنه لا أحد يفضله في مقدرته على تهدئة الثورة التي أشعلها هو نفسه، وقد فاقت نتائج هذا الاختيار حتى توقعات الخليفة نفسه فزياد الذي كان على معرفة جيدة بالوضع وبالناس في هذه المنطقة، اثبت منذ أن كان في فارس أنه حاكم قدير بالرغم مما كان يتصف به من القسوة وعدم الرحمة.(٥٥)

لقد كانت الحالة في البصرة مضطربة وسيئة جداً فقد أصبحت الأمور بيد القبائل لا بيد الحكومة وغلب على البصرة سفهاؤها وضعف سلطان الدولة فيها وانتشر السلب والنهب، في رابعة النهار، ولكن استطاع معاوية من استمالة زياد بن أبيه وتعيينه والياً عليها في أواخر سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٢ م وحينما وصلها كانت الأمور فيها أسوأ بالجرائم المستمرة والفحش الظاهر فيها(٥٦).

فخطب خطبته المعروفة بالبتراء وأنها سميت بذلك لأنه لم يحمد فيها الله ولما فيها من روائع الكلم وبديع الحكم وبيان سياسته في البلاد وعدد فيها مساوئ البصرة وتوعد أهلها بالويل والثبور.(٥٧)

وأن الأمر المهم الذي لم يوضحه المستشرق هو كيف استطاع زياد بن أبيه أن يحقق الأمن والسيطرة في البصرة؟

لقد وضح الطبري الطريقة التي حقق بها زياد الأمن، إذ أمر بمنع التجول في المدينة وكان يؤخر صلاة العشاء فإذا أفزع أمهل بقدر ما يرى أن إنسانا بلغ الخريبة ثم [أمر صاحب الشرطة بالخروج فيخرج ولا يرى إنسان إلا قتله.(٥٨)

وذكر المستشرق الروسي لقد أدخل زياد الذي كان قد تعرف أثناء وجوده في فارس على التنظيم الحكومي فيها، الكثير من التغييرات في البصرة [٥٩] ويستمر في ذكر ذلك لكنه لم يحدد الإجراءات التي قام بها زياد في مدينة البصرة.

بالإضافة إلى ما حققه زياد من المحافظة على الأمن والاستقرار وأراد أن يختبر مدى نجاح تدابيره الأمنية فبعث "بقطيفة منسوجة بذهب فألقيت بالخريبة فمكث ليالي وأيام ما يمسها أحد[٦٠].

ومن أعماله العمرانية في مدينة البصرة اهتم بنظافة شوارعها وتسويتها بعد المطر، إذ أمر أصحاب الدور بأخذ قسم من فناء دورهم لتسوية الشوارع به وكان يأمر الناس بالتنظيف، كما فكر بتطوير هذا المسلك فأجر من يقوم بهذه المهمة [٦١] وبذلك يكون زياد بن أبيه أول من أوجد التنظيف العام للشوارع.

ومن أعماله أيضا الإدارية في البصرة هو تقسيم جند البصرة إلى خمسة أقسام وكانت الصيغة القبلية أكثر وضوحاً في التقسيم، ولكن الهدف منه تسهيل توزيع العطاء على أفراد القبائل من خلال رؤسائهم.[٦٢]

ومن أهم تدابيره في البصرة زاد في المسجد زيادة كبيرة وبناه بالآجر والجص وسقفه بالخشب الساج، وجعل حيث بنى المسجد ودار الإمارة يطوف فيها وينظر إلى البناء ثم يقول لمن معه من وجوه أهل البصرة أترون خللاً؟ فيقولون ما نعلم ببناء أحكم منه، فقال بلا، هذه الأساطين التي على كل واحدة منها أربعة عقود لو كانت أغلظ وسائر الأساطين وظلت الأساطين سالمة قوية ولم يؤت منها تصديع ولا عيب.[٦٣]

وجعل في صفة الجامع المقدمة خمس سوار وبنى منارته بالحجارة وهو أول من عمل المقصورة ونقل دار الإمارة إلى قبلة المسجد، وكان بناؤها من اللبّن والطين وبقيت حتى أكمل أعمارها من جاء بعده في عهد سليمان بن عبد الملك ثم ابنه عبيد الله.

ورأى زياد كيف الناس ينفضون أيديهم إذا تربت وهم في الصلاة فقال "لا أمن أن يظن الناس على طول الأيام أن نفض الأيادي في الصلاة سنة" فأمر بجمع الحصى وألقاه في المسجد[٦٤].

ولما ولي زياد البصرة قال لمعاوية "لا ينبغي للإمام أن يتخطى الناس فحول دار الإمارة من الدهناء[٦٥] إلى قبلة المسجد فكان الإمام يخرج من الدار في الباب الذي في حائط القبلة"[٦٦]. وهذا

يعني أن البناء بقي على حاله وإن دار الإمارة ملاصقة للمسجد من جهة القبلة أي الجنوب الغربي وكان بينها وبين المسجد باب يخرج من الإمام إلى المسجد مباشرة دون أن يتخطى المسلمين .[٦٧]

ونقل زياد خمسين ألف عائلة من البصرة إلى خراسان وأسكنهم فيما وراء النهر [٦٨]، وذلك يعود إلى رغبة في التخفيف من حدة التوتر السياسي في البصرة وتعريب خراسان، وأيضاً تخفيف من الضيق الاقتصادي في البصرة، وتقليل من التدهور الأخلاقي الذي كانت تعيشه البصرة لكثرة اللصوص والقتلة .[٦٩]

كما بنى زياد دارا للرزق وحفر نهر الأبلة، ونهر المعقل وبنى البيضاء والحمراء فلم يضف إليه، وبنى سكة البخاريين فأضيفت إليهم وبنى سبعة مساجد، وكل مسجد بالبصرة كانت رحبته مستديرة فهو من بناء زياد [٧٠].

إن تركيز المستشرق ألكسندر آداموف على أيام زياد وولايته للبصرة فقط وكيف طارد الخوارج وقاتلهم ولم يركز على تدابيره في تنظيم المدينة فذكر "و- في الوقت نفسه- أخذ زياد يطارد الخوارج بلا رحمة بحيث كان يعتقلون حيثما ظهروا في حدود ولايته البصرة ويقتل منهم الأكثر خطراً دون أي تروٍ، بل حتى التستر على الخارجي كانت عقوبته صارمة، وهكذا لم يعد يسمع طيلة السنوات الخمس التي قضاها زياد في البصرة عن الفوضى والتمرد، وبدا الأمر كما لو أن الخوارج قد جرت تهدئتهم نهائياً" [٧١]، إن ما ينقله المستشرق هو فقط تمرد الخوارج وفوضاهم ولم ينقل العمران والتطور الذي حدث للمدينة في مدة زياد.

وهذا هو شأن أي مستشرق وهو التأكيد على الاضطرابات والفتن في تاريخ المدينة دون الأخرى طيلة مدة التاريخ الإسلامي دون ذكر أي تطور عملي أو عمراني فيها.

إن مدينة البصرة كانت ذات مقاتلة كبيرة، حتى وصل عددهم أيام زياد ثمانين ألف وعيالهم مئة وعشرين ألفا في حين كان مقاتلة الكوفة ستين ألف وعيالهم ثمانين ألف لذا؛ أدت البصرة دوراً مهماً في فتوح المشرق [٧٢].

وذكر المستشرق ألكسندر آداموف بإشارة إلى "صحيح أن سمرة بن جندب الذي تركه زياد مساعداً له في البصرة كان يماثل رئيسه في الشخصية وبدأ بسرعة وبهمة، في الاقتصاص من الخوارج فأعادت قسوته حكم زياد إلى الأذهان، لكنه لم يلبث أن أقبل بعد وفاة الوالي الذي كان يحميه مباشرة... ظهر أنه لا يصلح لمكافحة الخارجيين الأمر الذي حتم على الخليفة إقالته وعين بدلاً عنه لحكم البصرة عبيد الله بن زياد.[٧٣]

وجاء ابن زياد للبصرة وقد حاول أن يهدأ الوضع بإطلاق سراح جميع الخارجيين من السجون من أجل جذب أفراد الفرقة إلى صف الحكومة، ولكنهم اعتبروا هذا اللين من عبيد الله ضعفاً فزاد نشاطهم بنشر الفوضى في كل مكان وثارت الفتنة فاقتنع عبيد الله بأنه لا بد من ممارسة أشد العقوبات ضدهم مثلما كان أبوه زياد.(٧٤)

وما ذكر المستشرق بالنسبة إلى مدينة البصرة أيام ابن زياد، وهو تفكير معاوية بحصوله على البيعة لابنه يزيد فقال: "و–في هذه الأثناء– عهد معاوية الذي كان يرغب في أن يطمئن قبل أن يموت إلى إسناد الحكم من بعده إلى ابنه يزيد، إلى استدعاء جميع الولاة إلى دمشق لأخذ البيعة لابنه يزيد وكان في مقدمة هؤلاء الولاة عبيد الله بن زياد لأن معاوية كان يعلق أهمية كبيرة على موقف أهل البصرة في هذه المسألة، لقد عارض عبيد الله بن زياد في بداية الأمر تعيي يزيد ولكن الهدايا جعلته يتخلى عن معارضته، ...

ويكمل المستشرق ألكسندر آداموف حينما يذكر "ولكن يزيد مع ذلك لم يستطع أن يتجنب الصراع حول الخلافة، فكان من بين الذين امتنعوا عن مبايعته كل من الحسين، الأبن الثاني لعلي من فاطمة ابنة الرسول (صلى الله عليه وآله) وعبد الله بن الزبير الذي خسر أباه في معركة الجمل وقد كانا يعيشان في المدينة ولكل منهما حق في الخلافة لا يقل عن حق ابن معاوية ولهذا فإنهما كانا بالنسبة له منافسان خطران، وكان للصراع الذي دار بينهم حول السلطة والذي كان مسرحه العراق بالدرجة الأولى نتائج في غاية الأهمية بالنسبة للعالم الإسلامي بأجمعه "(٧٥).

لكن هناك فارقا كبيرا غفل عنه المستشرق أن الإمام الحسين (عليه السلام) سيد شباب أهل الجنة، أما يزيد فكان من أبناء الطلقاء يشرب الخمر وينكح المحارم، يزيد استباح المدينة المنورة وقتل ٦٠٠ صحابي حافظ للقرآن وأمر جيشه بارتكاب المحرمات، وأمر بأن تجول الخيل في مسجد الرسول (صلى الله عليه وآله) ، فلا بد من توضيح ذلك بالنسبة للمستشرق.

وفي القول إن عهد عبيد الله بن زياد شهد في المدة (٥٥–٦٧ هـ/ ٦٧٤–٦٨٦ م) في مدينة البصرة أخصب الحركات العسكرية ومجموعة من الحركات السياسية المعارضة للدولة الأموية خاصة بعد وفاة معاوية إذ كانت المدة التي أعقبت وفاته من أخصب الفترات في حركاتها السياسية والعسكرية المضادة للدولة الأموية .

ومن أهم هذه الأحداث فقد أيد بعض البصريين حركة الإمام الحسين بن علي (عليهما السلام) واجتمعوا وقرروا الخروج على عبيد الله بن زياد وكاتبوا الإمام الحسين وأجابهم على ذلك

وقد كتم كتاب الإمام الحسين (عليه السلام) من قرأه من الأشراف إلا شخصاً يقال له المنذر بن الجارود فإنه ظن أن الكتاب دسيس فجاء به إلى ابن زياد فبعث خلف الرسول الذي حمل الكتاب من الإمام الحسين (عليه السلام) فضرب عنقه.[٧٦]

ويستمر المستشرق بسرد قضية الإمام الحسين (عليه السلام) ومقتله الذي هز العالم الإسلامي[٧٧]، وكما ذكر خروج ابن الزبير ووصول مبعوثه إلى البصرة، فقال ألكسندر آداموف: "فليس هناك ما يدهش في أن ينجح– في نهاية الأمر– مبعوثو ابن الزبير الذي أرسلوا إلى البصرة والكوفة يدعون لمبايعته خليفة، وفي هذه المرة أيضا لم يمر الأمر في البصرة دون إراقة دماء فقد أعلن بحرب حامية البصرة عبيد الله بن زياد عامل البصرة الذي كان موجوداً في المدينة عند موت يزيد وصياً مؤقتاً إلى أن يتم اختيار خليفة جديد، ولهذا لم تكن مهمة مبعوث عبد الله بن الزبير تعود بأي نجاح إذ لم يتمكن بوصفه من بني تميم من أن يجذب إلى صفة أبناء قبيلته الذين كانوا يؤلفون أغلبية سكان البصرة،... وفي نهاية الأمر هرب عامل البصرة إلى الشام تاركاً المدينة في قبضة أنصار عبد الله ابن الزبير".[٧٨]

يتناول المستشرق حركة ابن الزبير، ولكنه لم يذكر من هو مبعوثه إلى البصرة.

لقد نشطت دعاية ابن الزبير في البصرة كان ذلك في سنة ٦٤ هـ/ ٦٨٣ م، في سوق الإبل رجل مقنع على فرس شهباء فكان يقول: "أيها الناس هلموا إلي أدعوكم إلى لم يدعكم إليه أحد أدعوكم إلى العائد بالحرم... فتجمع له الناس فجعلوا يصفقون على يديه" ولما كشف عن هويتيه فإذا هو سلمة بن ذويب بن عبد الله بن محكم بن زيد بن رياح بن يربوع بن حنظلة، ولما علم ابن زياد بذلك دعا الناس إلى الصلاة الجامعة وأنشأ يقص أمره وأمرهم ما كان قد دعاهم إلى من يرتضونه... " [٧٩]، فقال ابن زياد" وإنه بلغني أنكم مسحتم أكفكم بالحيطان وباب الدار وقلتم ما قلتم وإني أمر بالأمر فلا ينفذ ويرد علي رأي وتحول القبائل بين أعواني وطلبي أن هذا سلمة يدعو الخلاف عليكم" [٨٠].

وعلى الرغم من تهديدات ابن زياد وكيف وعدهم بالمال وزيادة في العطاء إلا أن أعدادا من أهل البصرة انضمت إلى سلمة، وحينما وجد أهل البصرة قد انضموا إلى سلمة وحاصروا حاميته وهاجت البصرة في فتنة لحق ابن زياد في الشام.

وجعل أهل البصرة عبد الملك بن عبد الله بن عامر أميرا عليهم لمدة شهر ثم جعلوا أباه عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب، وظل هذا شهرا عاملاً عليها، حتى تمكن ابن الزبير من السيطرة على البصرة في سنة ٨٤ هـ، وعين عليها عمر بن عبد الله بن معمر والياً عليها .(٨١)

السؤال هنا: هل دخل عبد الله بن الزبير البصرة بعد أن بويع له بالخلافة؟

لم يحضر إلى البصرة ابن الزبير وإنما اكتفى بتعيين وال عليها وعلى الكوفة والظاهر كان الواليان ضعيفين ينقصهما الحزم.(٨٢)

واستغل الخوارج هذا الوضع وقاموا بهجمات على أطراف البصرة بقيادة نافع بن الأزرق حتى بدت البصرة قد خضعت للخوارج أو أنه مجرد وقت لا أكثر لكن استطاع أهل البصرة الدفاع عن مدينتهم بسبب الانشقاق الذي حدث في صفوف الخوارج وانتصارات المهلب بن أبي صفرة عليهم.(٨٣)

واستطاعت البصرة أن تتخلص من هؤلاء الخارجيين وتتنفس من هول الهجمات والغزوات وبذلك عين ابن الزبير المهلب بن أبي صفرة عاملاً له على البصرة (٨٤).

واستمر المستشرق بالإشارة إلى أحداث البصرة وأشد أيامها في خلافة عبد الملك بن مروان لكنه لم يتناول الصعوبات التي واجهت والي عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفي (٨٥) في البصرة وإنما استمر بسرد أحداث سياسية.

ذكر المستشرق بعد أن انتقل العراق إلى حكم عبد الملك بن مروان أبقى الخليفة للمهلب القيادة العامة للقوات المخصصة للقضاء على الخوارج... وبعد تسلم الحجاج زمام الحكم بادر إلى مساعدة المهلب على الفور وأخذ يتخلص من الخوارج والهاربين من الخدمة العسكرية ونجح في ذلك (٨٦).

ولكن من الصعوبات التي واجهها الحجاج من أجل أن يحقق الأمن والاستقرار وأنه قد أيقن لا بد من تحقيق ذلك لأهمية كل من البصرة والكوفة؛ لأنهما يشكلان أهم مركزيين عسكريين في البلاد وأن أي فتنة فيها تسبب زعزعة في أمن البلاد.

واجه صعوبات في البصرة بدأت تعاني من نقص في الواردات تدريجياً بسبب هجرة أهل القرى والفلاحين من أراضيهم الزراعية التي كانوا يدفعون عنها الخراج للدولة(٨٧).

وخطر الخوارج الذين كانوا ينازعون الخلافة الأموية في العراق وكان الحجاج بحاجة إلى جيش لمحاربة الخوارج، لكن العرب لم يكونوا راغبين في مساعدته لذا؛ عزم على إجبار الناس للخدمة في الجيش [٨٨]

وأما الفلاحون وأهل القرى الذين تركوا أراضيهم الزراعية فقد أمرهم بالرجوع إلى الأراضي وزراعتها بالقوة.[٨٩]

أشار المستشرق إلى حركة ابن الأشعث بعد أن تحرك من سجستان حتى قال إنه جمع تحت رايته أعدادا لا تحصى من الخوارج وحاول أن يستولي على البصرة " ...[٩٠].

ولذلك نعلق فقد جاء معه إلى العراق بقوة كبيرة وتمكن بانضمام أهل البصرة من دخولها بعد أن انتصر على جيش الحجاج في دجيل وفر المنهزمون إلى داخل البصرة وتبعهم عبد الرحمن ومن معه وانسحب الحجاج حتى دخل الزاوية وهي إحدى ضواحي البصرة وخندق فيها.

وانضم إليه هناك بعض الثقافيين والقريشيين من أهالي البصرة، ثم زحف ابن الأشعث إلى الكوفة وعين عبد الرحمن بن العباس الهاشمي على البصرة لكن ذلك لم يدم طويلاً إلا أياما؛ لأن سواد أهل البصرة قبلوا الأمان الذي أعلنه الحجاج بعد انصراف ابن الأشعث إلى الكوفة [٩١].

وعندما سيطر الحجاج على الكوفة هرب ابن الأشعث إلى البصرة، ولكنه لم يلبث فيها طويلاً بل رجع إلى مسكن [٩٢] وقد كانت القبائل المنظمة إلى حركة الأشعث متماسكة وكانت طبقة القراء أشد الناس حماساً في الاشتراك في الحركة[٩٣]. ولم ينتقم الحجاج من أهل البصرة فقد أمر وعلى الفور بالنداء بالأمان الشامل لمن ألقى السلاح [٩٤].

ولذلك يمكن القول أصبحت البصرة في العصر الأموي من أهم مراكز الدولة وكان يديرها وال يتمتع بشبه استقلال ذاتي، لكنه هو المسؤول أمام الخليفة الأموي ويعمل باسمه وكانت واجباته فقط الأمن وتطبيق الشريعة وتحقيق الاستقرار والأمان للمواطنين، وكانت هذه الواجبات صعبة على والي المدينة لأن معظم القبائل كانت ما زالت الحياة القبلية وشعائرها موجودة عندهم ولم يألفوا الخضوع إلى سلطة عليا مركزية تسيطر عليهم وفي الوقت ذاته كان لشيوخهم سلطات قوية قائمة على حياة البداوة [٩٥].

ونرى بمرور الوقت تناقصت سلطة الشيوخ –ولا بد– من الامتثال إلى القوانين العامة وسلطة الوالي الذي يمثل الخليفة حينها ويراعي مصلحة العامة دون مصلحة القبيلة وحفظ التوازن بين القبائل ويحدد الحقوق والواجبات بينهم وبين الأشخاص أيضا.

المبحث الثاني/البصرة في العهد العباسي الأول

إن ما يتناوله المستشرق عن البصرة عن العصر العباسي ذكر: "لقد تغلب أنصار العباسيين على جيش عامل خراسان عند نيسابور وثار وقت المسير نفسه القوات التي أرسلها مروان من العراق للتصدي لهذا الزحف، فاضطر إلى الانسحاب من العراق حيث سارعت الكوفة إلى فتح أبوابها أمام المنتصرين فدخلها أبو العباس وأبو جعفر المنصور... واتخذها عاصمة حتى تأسست بغداد، وقال أيضا المستشرق؛ و–في هذه الأثناء– كان فصيل خاص من القوات العباسية قد حاصر البصرة ولم تستسلم البصرة إلا بعد مقاومة فقد تعرضت لنهب الجند الذين قضوا على جميع من عرف بمناصرته للأمويين وهدموا منازلهم.[٩٦]

يبدأ دور البصرة في خدمة الدعوة العباسية ذلك بعد دخول القوات العباسية للعراق فبعد أن تمكن القائد العباسي قحطبة بن شبيب الطائي [٩٧] من السيطرة على المشرق توجه إلى العراق وكاتب كل من سفيان بن معاوية [٩٨] المهلبي وروجي بن حاتم المهلبي [٩٩] بالبصرة لإظهار الدعوة العباسية فيها ودعاهم إلى إخراج عامل البصرة الأموي منها .[١٠٠]

في حين يرى أحد الباحثين أن البصرة قاومت العباسيين منذ بداية حكمهم ولم تنته الاضطرابات فيها فلقد كانت في سلوكها السياسي المتلون، وكانت تقاوم كل سلطة مهما كانت وذلك بتحريض من بني تميم الذي كانوا يشكلون الأغلبية وهم الذين وضعوا النهج السياسي المتقلب للمدينة[١٠١].

لكن قبائل تميم على الرغم من أنها أكبر القبائل وأكثرها انتشاراَ إلا أنها لم تمثل وجهة نظر أهالي البصرة جميعاً من المعلوم أن سكان البصرة تضم أعدادا من القبائل القوية أمثال قبيلة بكر بن وائل، وعبد القيس والأزد، فنجد أن قبيلة الأزد وحلفائها وقفت إلى جانب الدعوة العباسية وساندتها.

ولم تستقر الأوضاع السياسية والإدارية في البصرة على الرغم من استقرار الوضع لمصلحة العباسيين فيها فبعد أن تولى سفيان بن معاوية المهلبي فيها وسويت له الأمور بعد معارك مع اتباع الأمويين والدهشة التي استولت على سكانها من مشاهدة تلك الأموال فقد انتصر العباسيون وأعطي الأمان بذلك، يكون أول دخول للبصرة في حوزة الدولة العباسية وقراءة الخطبة باسم الخليفة العباسي.[١٠٢]

ومما تقدم تكون البصرة قد دخلت تحت سلطة العباسيين إلا بعد مدة من دخول العباسيين إلى العراق ومنذ بدأ العصر العباسي بعام ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م تولى ولاية البصرة خمسة وثلاثون والياً ومنهم من تولاها مرتين أمثال سفيان بن معاوية والبعض الآخر لثلاث مرات أمثال محمد بن سليمان، والبعض تولاها لبضعة أشهر[١٠٣] ، ويبدو أن التغيير في ولاة البصرة له علاقة بالكفاءة الإدارية لبعض هؤلاء الولاة، كما أن الظروف التاريخية الصعبة التي صاحبت تولي بعضهم كانت أقوى منهم مما يؤدي بالحكومة المركزية إلى التعجيل في تغييرهم بالسرعة الممكنة لمواجهة الظروف الطارئة –كما هو الحال– بالنسبة إلى الوالي عبد الله بن ماسجور، وعيسى بن يزيد الجلودي حين اشتعلت أيامهم حركة الزنج التي أخفقوا في إخمادها.[١٠٤]

ويستمر المستشرق ألكسندر آداموف في سرد الأحداث عن كيفية وصول العباسيين إلى الخلافة بعد أن رفعوا شعارهم الرضا من آل محمد ووصلوا تحت راية العلويين واعتمدوا على العنصر الفارسي وحاولوا التوازن بين العناصر وكان العراق مهما بالنسبة لحكم العباسيين وتحول إلى مركز الحياة السياسية والادارية والاقتصادية بعدما اختاروا بغداد عاصمة لدولتهم[١٠٥].

وكما تكلم عن البرامكة ودورهم في الخلافة العباسية وكيف نقلوا القيم الفارسية إلى الخلافة العباسية فقد أصبح البلاط العباسي يشابه كثيراً ما كان موجوداً في مملكة الساسانيين من البذخ وحياة الترف.[١٠٦]

ما يهمنا هو ما كان يجري في البصرة، وقد ذكر المستشرق ألكسندر آداموف "وقد شاركت البصرة التي أصبحت مركزاً للدعاية العلوية، العربية بشكل فعال في صراع العلويين مع العباسيين، وأقدم حوادث هذا الصراع وأكثرها الثروة التي قام بها محمد وإبراهيم حفيدا الحسين (ع) فسببا للمنصور العباسي اهتماماً وقلقاً شديدين ففي الوقت الذي كان فيه أحد الأخوين وهو محمد وقد استمكن من الحجاز حيث استطاع أن يحصل على مبايعة سكان مكة والمدينة له بالخلافة، نظم الأخ الآخر إبراهيم [١٠٧]عصياناً في البصرة لم يلبث أن انتشر بسرعة فشمل القسم الأغلب من العراق وعربستان المجاورة له [١٠٨].

بدأ إبراهيم حركته في البصرة في شهر رمضان سنة ١٤٥ هـ وكانت بدايتها طيبة والظروف مواتية له، إذ ذكر خليفة بن خياط رواية والتي ترجع إلى شهود عيان للأحداث أن والي البصرة سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب سلم دار الإمارة إلى إبراهيم من غير قتال، ثم قوى أمره بما استولى عليه من دواب الجند وما أخذ من الأموال بعد الاستيلاء على دار الإمارة واستطاعت

طلائع قواته أن تحرز بعض النصر على القوات العباسية فاستولت على الأهواز بعد أن ألحقت الهزيمة بواليها، كما نجحت في دخول فارس وتمكنت منها .[١٠٩]

وعلى ما يبدو أن إبراهيم كان يدعو إلى أخيه محمد ذي النفس الزكية، وأغلب الظن أن الآخرين كانا قد اتفقا على أن يعملا عملاً منفصلاً ذلك ليتم مباغتة الدولة حتى إذا ما هزم أحدهما نجا الآخر وعرف إبراهيم كيف يستغل الظروف ويسير الجيوش ضد المنصور العباسي وقت أن كان المنصور ضعيفا بسبب انتشار قواته في أطراف الدولة لربما انتهت ثورة إبراهيم في البصرة بالنجاح.

فلم يكن للمنصور الأقلية من العسكر وكانت جيوش الدولة موزعة في الحجاز وفي خراسان وفي أفريقيا التي كانت مضطربة وأحس المنصور بحرج موقفه ولكن سرعان ما استعاد رباطة جأشه فاستدعى عيسى بن موسى العباسي من المدينة وطلب بعض الجيوش من الري وكتب إلى ابنه المهدي بإرسال قوات لاستعادة الأهواز، وكما قيل أن أهل الكوفة طلبوا من إبراهيم المسير ليستعين بهم ولكن النصوص تقول إنه كان يخشى أن خرج أهل الكوفة إليه أن تفتك خيل المنصور بناشئتهم وأطفالهم [١١٠].

وأخيرا، خرج إبراهيم من البصرة للقاء عيسى بن موسى ونزل بموضع يقال له باخمرا، على بعد ٦ فراسخ من الكوفة، وكان النصر في البداية إلى صالح إبراهيم العلوي، ولكن انتهى الأمر بهزيمتهم بعد مقتل إبراهيم في ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ [١١١].

وبذلك اندحرت الثورة العلوية الكبرى وصفى الأمر للعباسيين بعد أن قضوا على أخيه محمد ذي النفس الزكية في الحجاز، واستقر الأمر إلى أبي جعفر ولقب نفسه بالمنصور.

والذي يهمنا هو أمر مدينة البصرة على الرغم من الدمار الذي لحق بالمدينة نتيجة المعارك التي حدثت، إلا أنها سرعان ما استعادت نشاطها التجاري وحيويتها وذلك نظراً للاهتمام الذي أولاها الخلفاء العباسيين وعلى رأسهم أبو جعفر المنصور لأهميتها الاقتصادية والتجارية وبعد أن استعادها المنصور عين عليها والياً وهو مسلم بن قتيبة الباهلي، نظراً لجهوده وخدماته التي بذلها في التصدي لحرمة إبراهيم العلوي.

إن حركة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وما صاحبها من تطورات شهدتها مدينة البصرة على أثرها دفع الخليفة أبو جعفر المنصور إلى بناء سور للمدينة، وتشير الروايات أن والي المنصور الهيثم بن معاوية العتكي قام بتشييده عام ١٥٥ هـ/ ٧٧١ م، كما حفر خندق حول المدينة بأمر من

المنصور[١١٢]. وقد أسهم أهالي البصرة في البناء، وقدموا الأموال اللازمة كلاً حسب مقدرته، ثم جدد السور في عهد الواثق عام ٢٨٦ هـ/ ٨٩٩ م، وذلك لدرء خطر القرامطة الذين ظهروا في البحرين.[١١٣]

ومن أهم أعمال المنصور في مدينة البصرة أنه شق نهر الأمير الذي أمر الخليفة المنصور بحفره وكان يقال له نهر أمير المؤمنين ثم قيل نهر الأمير [١١٤]

وذكر اليعقوبي لقد نمت البصرة خلال النصف قرن القادمة نمواً كبيراً خاصة بعد بناء بغداد سنة ١٤٠ هـ/ ٧٦٢ م وصارت تمثل باب بغداد الكبير والمنفذ الرئيس لإقليم العراق الحافل بالمنتجات الزراعية والصناعية بالإضافة إلى أنها مركز السفن بالخليج العربي ولذلك كانت البصرة تسمى مدينة الدنيا [١١٥].

ثم شق نهر أبي الخصيب، المنسوب إلى أبي الخصيب مرزوق حاجب الخليفة المنصور، وهو نهر كبير متفرع من شط العرب في الجهة الجنوبية من البصرة، وأنشأ على جانبيه الكثير من البساتين والمزارع، وفي عهد المهدي شق نهر الصلة في البصرة، وكما حفر في عهد هارون الرشيد أنهر منها نهر سيحان الذي يقوم اليوم بالقرب من ناحية السيبة، وأنفق عليه الكثير من الأموال[١١٦].

ويبدو أن اهتمام الخلفاء العباسيين في شق الأنهر والقنوات في مدينة البصرة له علاقة بسياستهم الاقتصادية الرامية لرفع مستوى الزراعة الجديدة من خلال استطلاع الأراضي وزيادة في الإنتاج ووفرته، ومن أجل إنجاح هذه السياسة أعلنوا عن تخفيف الأعباء المالية للفلاحين تشجيعاً على مزاولة الزراعة والعناية بحقوقهم.

ويستمر المستشرق في ذكر أحداث عن العصر العباسي منها ما أن تخلص المنصور من انتفاضة إبراهيم القوية حتى وجه جُل اهتمامه إلى الخطر الذي يتهدده من جانب العلويين وظل يراقبهم، وعاقب أهل البصرة عقوبة قاسية بسبب مساندتهم لحركة إبراهيم وعاقب بلا رحمة كل من شارك فيها .[١١٧]

ومهما كانت العقوبة قاسية لأهالي البصرة وللدمار الذي حل بالمدينة، بسبب رغبتها في نصرة العلويين لكن هذا الدرس القاسي لم يهدّأ سكانها إلا مؤقتاً.

وذكر المستشرق بعد أن اعتلى هارون الرشيد سدة الحكم وبعد أن لقن البرامكة درساً وذلك للتخلص من سعة نفوذهم في الخلافة وعودة خلفاء بغداد إلى اعتمادهم على العنصر العربي .[١١٨]

يمكن القول عن حركة أبي السرايا[١١٩] إنه تمكن بعد وفاة ابن طباطبا (محمد بن إبراهيم)[١٢٠] ليقوم مكانه محمد بن زيد [١٢١] وأصبح السرايا قائداً لجيشه.

إن ما ذكره المستشرق في عهد الخليفة هارون الرشيد فقط تخلصه من الفرس وإنهاء حكم البرامكة لكن الرشيد كان من أشهر الخلفاء العباسيين الذين اهتموا بالزراعة وتحسين أحوال الفلاحين واستطلاع الأراضي الزراعية وعمل على تخفيف الضرائب أكثر مما خففه المهدي من قبل وعليه كلف قاضيه أبي يوسف بتنظيم المسألة المالية، فألف كتابة (كتاب الخراج)، والهدف من تأليفه للخليفة حيث قال: "إنما كلفت بذلك أشار فيه الظلم عن رعيته والصلاح لأمرهم"[١٢٢].

ولقد كانت لسياسة العباسيين نتائج مهمة في إنتاج كميات كبيرة من محاصيل الحنطة والشعير والأرز والتمر في مدينة البصرة، فضلاً عن الخضراوات والفواكه وأنواع مختلفة من الزهور، وهذا كله بدوره أسهم في رواج البصرة في عهد العباسيين حتى أصبحت من أهم مراكز التجارة للمواد الغذائية في الخليج العربي، ونعّمت البصرة بأسباب العيش الرغيد نتيجة لتعدد مواردها الاقتصادية وقال الجاحظ في رخاء البصرة "ومن أتى وادي القصر بالبصرة رأى أرضا كالكافور، ورأى صبابا، وغزلاناً وسمكاً وصياداً، وسمع غناء ملاح في سفينته "[١٢٣].

ولم تقتصر اهتمامات العباسيين على ميزان الزراعة فقط؛ بل ركز على الصناعة فشجعوا هذا المرفق الحيوي وأولوه اهتماماً كبيراً كما أدخلوا بعض الصناعات كصناعة الزجاج والصابون وصناعة المنسوجات وغيرها [١٢٤].

وكما اشتهرت البصرة في نشاط آخر ألا وهو التجارة، ويعد كتاب (التبصر بالتجارة) للجاحظ مرآة لتطور النشاط التجاري المبكر لمدينة البصرة التي هي مسقط رأسه فكان شاهد عيان على ما كان يجلب عن طريق البصرة إلى بغداد وسائراً بأرجاء العراق من شتى سلع أطراف الدنيا، وما كان يصدر عن البصرة إلى مختلف الآفاق .[١٢٥]

ومن خلال ما تقدم نجد أن المستشرق الروسي لا يذكر الازدهار والتقدم الاقتصادي للمدينة في العصر العباسي وما حققته من شهرة في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة وإنما يتوقف عند شرح ونقل الأحداث السياسية التي كانت نتائجها سلباً على المدينة وأهلها دون ذكر للتقدم الحضاري وهذا هو ديدن المستشرقين دوماً.

لذلك ينقل المستشرق ما حدث بعد خلافة الرشيد من نزاع بين أولاده الأمين والمأمون وسرعان ما تحول هذا النزاع العائلي إلى صراع مكشوف بين العرب والفرس انتهى بتبوء المأمون

سدة الحكم عام ٨١٣ م، وكما قال المستشرق: وقد تحتم على الخليفة الجديد بعد أن اعتلى سدة الخلافة مباشرة أن يركز على جل اهتمامه بقمع الانتفاضة التي أشعلها في العراق شخص يدعى أبا السرايا ابن المنصور بالنيابة عن إحدى الشخصيات العلوية، ومحمد بن إبراهيم الملقب طباطبا والذي كان مقره الكوفة.

وقال أيضا: وعلى الرغم من أن قائدي هذه الانتفاضة الأساسيين لم يلبثوا أن خرجوا من المسرح بسبب موت محمد العلوي فجأة والقبض على أبي السرايا وإعدامه، فإن الاضطراب شمل منطقة واسعة تمتد من اليمن إلى عربستان .[١٢٦]

لم يوضح المستشرق من هو أبو السرايا ومحمد بن إبراهيم وكيف اختفى ابن طباطبا وأعلن أبو السرايا ثورته باسم محمد بن زيد العلوي أيضا، وهل استطاع أبو السرايا من الدخول إلى البصرة وما مدى أهمية هذه الحركة.

لقد كان للظروف الصعبة التي مرت بها الخلافة العباسية أثناء الفتنة التي نشبت بين الأمين وأخيه المأمون التي دامت حوالي خمس سنوات ١٩٣–١٩٨ هـ/ ٨٠٩–٩١٣ م من انتشار الفوضى وعدم الاستقرار العباسي وانعدام السلطة التي انتهرت بعض العناصر المعادية للعباسيين الفرصة فقامت بحركات هدفها الإحاطة بالحكم العباسي[١٢٧].

ففي عام ١٩٩ هـ/ ٨١٤ م حيث تسلم السلطة كان عليه أن يقضى على حركة أبي السرايا الذي استطاع أن يستولي على مدينة البصرة وطرد الوالي محمد الجعفري منها، كما تمكن من أن يدخل مناطق أخرى كالكوفة والمدائن وواسط ومد نفوذه إلى الأهواز، وذكر أنه عين نواباً عنه يحكمون تلك المناطق باسمه منهم يزيد بن موسى بن جعفر الذي عينه على البصرة، وكان هذا يلقب بزيد النار لكثرة ما أحرق من دور العباسيين واتباعهم، وإن أبا السرايا هذا ما أن تخلص من محمد بن إبراهيم الملقب (بن طباطبا) حتى أخذ يدعو إلى علوي آخر هو محمد بن زيد وأصبح قائداً لجيشه وتمكن من الكوفة والبصرة وغيرها من المدن [١٢٨].

ونظراً لخطورة هذه الحركة، فقد أوكل المأمون جيشاً بقيادة صالح بن رشيد وعلي بن أبي سعيد اللذين تمكنا من محاربة أبي السرايا ومن قتله فدخلت القوات العباسية مدينة البصرة، وألقت القبض على واليها يزيد بن موسى وبذلك أعيد النظام والأمن مرة أخرى إلى ربوع البصرة [١٢٩].

وعلى الرغم من الهدوء الذي خيم على المدينة عقب انتصار القوات العباسية والقضاء على حركة أبي السرايا إلا أن بعض المناطق المحيطة بالبصرة لا سيما البطائح كانت لا تزال يشوبها

عدم استقرار من جراء خروج بعض أخلاط من الأعاجم غالبيتهم من الزط [١٣٠]، باستغلال الظروف السابقة للقيام بأعمال تخريبية كالنهب والسلب وقطع الطرق، ويقال إنهم اجتمعوا أيام الفتنة بين الأمين والمأمون وهاجموا قرى البصرة وطرقها،، وعاثوا فيها وأخذوا الغلات من البيادر في بعض مناطق البصرة، وأخافوا السبيل وهاجموا السفن واستولوا على حمولتها حتى انقطع عن بغداد جميع ما كان يحمل إليها من البصرة[١٣١].

وعلى الرغم من الظروف التي كانت تمر بها الخلافة العباسية إلا أنه تم إرسال جيشا لمحاربة هؤلاء، ففي عام ٢٠٥ هـ/ ٨٢٠ م علق والي البصرة عيسى بن يزيد الجلودي من قبل المأمون بمهمة القضاء عليهم وأنه حقق بعض الانتصارات عليهم لكنه أخفق بالقضاء عليهم وعزل وجاء بوالٍ جديد وهو داود بن مايجور لمهمة مواصلة ما بدأه الوالي السابق، وأخفق أيضا وظل الأمر حتى عام ٢١٩ هـ وهي السنة التي اعتلى فيها المعتصم الخلافة.[١٣٢]

وقد أولى المعتصم اهتمامه لإنهاء حركة الزط بأسرع ما يمكن فعيّن قائده العربي عجيف بن عنبسة لهذه المهمة وضم إليه من القواد والجند الكثير وأمده بأموال طائلة، ووفق خطة دبرها عجيف أمر بإغلاق الأنهار التي كانوا يدخلون منها ويخرجون ثم أخذ عليهم الطرق وبدء بشن هجمات عليهم حتى قيل إنه أسر منهم خمسمائة رجل في معركة واحدة، وبعد حصار لهم سبعة أشهر طلبوا الأمان فأمنهم فخرجوا إليه في ذي الحجة ٢١٩ هـ/ ٨٣٤ م، فلما خرج جعلهم في سفن نقلتهم إلى بغداد ثم إلى عين زربة.[١٣٣]

وعيّن عجيف بن عنبسة والياً على البصرة بعد القضاء على حركة الزط التخريبية وعلى الرغم الرغم مما أصاب المدينة من أحداث تخريب وتلف إلا أنه سرعان ما تحدد الخراب وتعمّر التلف وخرجت البصرة معافاة سليمة وازدهرت فيها الحياة مرة أخرى بفضل العناية التي أولاها الخلفاء العباسيين إليها.

وبقي والي البصرة عجيف بن عنبسة طيلة خلافة المعتصم والواثق حتى نهاية العصر العباسي الأول ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م.

واعتلاء الخليفة المتوكل على عرش الخلافة فكانت البصرة تنعم خلالها بالاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي التي شهدته أيام الخلفاء العباسيين الأقوياء الأوائل.

وذكر المستشرق ألكسندر آداموف فقال "لم تكن هذه البداية تنبئ بخبر ولهذا نصب المأمون عام ٨١٧ م وفي إطار مهادنته للعلويين الحفيد الثامن لعلي والياً للعهد من بعده، ولقد أعطى لهذا المرشح للخلافة واسمه علي بن موسى لقب الرضا التي تعني محبوب الله قد عمد الخليفة إلى مصاهرته بأن زوجه من ابنته. لقد وصل إعجاب المأمون بالعلويين إلى حد أنه أصدر أمراً باستبدال الراية العباسية السوداء بأخرى من اللون الأخضر وهو اللون المميز للعلويين "[١٣٤].

هنا تبين أن المأمون حاول مهادنة العلويين وتقريبهم لكي يتجنب انتفاضاتهم وثوراتهم التي أصبحت مستمرة، وما أن تولى الإمام الرضا (عليه السلام) وانفصلت فارس بسيطرة بني ظاهر فقد جعل خراسان أسرة الظاهريين وكان بداية لخروج بقية أجزاء فارس من سلطة العباسيين [١٣٥].

وذكر المستشرق ألكسندر آداموف فقال: "وقبل أن تظهر آثار سياسة المأمون المؤاتية للفرس في العراق تمتع هذا القطر حتى ٨٣٣ م أي إلى أن توفي الخليفة المذكور بهدوء واستقرار نسبيين، ولقد ساعدت حياة السلم هناك على أن تزدهر في البصرة أولا ومن ثم في بغداد العلوم والآداب الإسلامية وكان نتيجة لاختلاط وتفاعل شعبين متعارضين في خصائصهما العرب والفرس "[١٣٦].

إن الازدهار الذي حصل في العراق ومدنه ليس من الاختلاط فقط مثلما يذكره المستشرق ذلك لأن الحركة الثقافية كانت في مدينة البصرة ومدينة الكوفة التي سبقتها بغداد في التأسيس فغلبت الثقافة وازدهرت العلوم في المدينتين، ولقد شهد القرن الثاني الهجري حركة عقلية ضخمة أمدتها روافد كثيرة أولها الثقافة العربية الأصلية التي تمثلت في القرآن والحديث وفقهها وعلوم اللغة العربية، وكذلك الصلات العلمية بين علماء الأمصار الدولة من ناحية الرحلات التي قام بها طلبة العلم.

وكما ذكر المستشرق عن البصرة "وقد بلغت البصرة كمركز علمي آنذاك شأناً كبيراً من الازدهار بحيث أظهر الإحصاء الذي جرى بأمر من المأمون للعلماء والدارسين فيها بأن عدد العلماء سبعمائة وعدد الدراسيين أحد عشر ألفا. وهناك حكاية تقول بأن المأمون طلب من علماء

البصرة إلى مكتبة (دار الحكمة) التي كان قد أسسها في بغداد نسخة واحدة من كل مؤلف لهم في فروع المعرفة المختلفة، وقد بلغت الكتب التي أرسلت إلى بغداد حمولة ثلاث سفن"[١٣٧].

إن ما ذكره المستشرق ألكسندر آداموف عن البصرة كمركز علمي لم تكن في عصر العباسيين؛ بل كانت كذلك مركزا دينيا مهما منذ أن أُسست وتطورت فيها الحركة العلمية والعمرانية منذ العصر الراشدي والعصر الأموي ولكن حققت تطوراً ملحوظاً في جميع المستويات العلمية والدينية والأدبية في عصر المأمون بالأخص وذلك للحركة العلمية المأمونية ورجالاتها ومؤلفاتهم فعصره أفاد بمؤلفات وكتب كثيرة وذلك لحركة الترجمة التي اعتمدها في ترجمة الكتب اليونانية والفارسية وتأسست دار الحكمة واهتم بالكتب والعلماء في جميع أنحاء الخلافة وكذلك كثرة المترجمين والاهتمام بهم وما صرفه لهم من الأموال والذهب في ترجمة الكتب سواء كتب أرسطو وغيرها من أفلاطون ولذلك كان الازدهار العلمي قد شمل البصرة لتوسع الحركة العلمية على نطاق واسع.

ومن الجدير بالذكر أن الترجمة في العصر العباسي اختلفت عن الترجمة في العصر الأموي فقد ازداد إغداق الخلفاء والوزراء على العلماء وطلب العلم وزادت المكافآت للعلماء الذين يشدون الرحال إلى كل حدب وصوب .[١٣٨]

الخاتمة

في نهاية هذا البحث توصلنا إلى النتائج الآتية:

١ –نتيجة لمحدودية الأوراق البحثية الخاصة بالدراسة ولسعة المعلومات التي مصدرها مؤلف ألكسندر آداموف موضوع البحث، ومن ضمنها المعلومات التاريخية والجغرافية والاقتصادية والعقائدية وغيرها عن البصرة وسكانها فقد اقتصر الباحث على ما هو موجز ومهم لتاريخ مدة الدراسة لأن معظم معلومات ألكسندر آداموف في تلك الجوانب هي في عصره وما سبقه بعقود لذا؛ تعد من التاريخ الحديث.

٢ –لقد حاول المستشرق الروسي من خلال سطور كتابه عن مدى استيعاب لتاريخ مدينة البصرة، على الرغم من وجود بعض وجهات النظر المتضاربة إلا أن ذلك لم يلغ أهمية الكتاب وقد ذكر المؤلف أنه كان مدركا لوقوعه ببعض الأخطاء التاريخية خلال كتابه لهذا الكتاب عندما ذكر "... إننا لم نطمح أن نقدم عرضاً تاريخياً يبلغ حد الكمال... لهذا فإننا نرجو من القارئ أن يكون مسامحاً تجاه محاولتنا."

٣ –نجد أن ما نقله المستشرق عبر المراجع التي نقل منها مباشرة أو تلك المصادر التراثية التي كتبت غالباً بأمر السلطات المتغلبة كانت تكثر من الكذب والتوزير لأسباب متعددة، وليس بالضرورة أن يشكل استنادنا على تلك المصادر تصديقاً واعترافا بصحة كل ما تضمنته خاصة وأنها تضم الكثير من الروايات والوقائع المكذوبة، ليس فيها من الصحة خاصة ما يتعلق بالفتنة الكبرى خلال خلافة الخليفة عثمان بن عفان وبعده تولي أمير المؤمنين الإمام علي (عليه السلام) الخلافة، ولا يخفى على الدارس أن الأيادي الأموية كان لها دور كبير فيها ومن ثم العباسية.

٤ –إن المستشرق ألكسندر آداموف لا يختلف عن بقية المستشرقين الذين نقلوا عن تلك المصادر دون تمحيص وبلا حيادية، بل وأحيانا يعتمدون تضخيم تلك الوقائع المكذوبة، ولعل ذلك راجع لسببين، الأول: استمرار التشرذم في المجتمع الإسلامي من خلال تعظيم ومدح أعمال الطغاة ليبقى المجتمع الإسلامي أسيرا لمثل أولئك الشخوص؛ لأنها ستكون قدوة لطغاة العصر وإعلامهم، أما

السبب الثاني: فهو لا يقل أهمية وهو تمكين مجتمعات الغرب من الطعن بالإسلام وقيمه عبر فضح جرائم لقيادات إسلامية عدها مؤرخو السلطات رموزاً للإسلام.

٥ –تغافل المستشرق عن بعض الوقائع المهمة وهذا يعد انتقاداً له لكن لا يقلل من أهمية عمله وخاصة فيما يتعلق بدراسته التاريخية والاقتصادية والجغرافية والاجتماعية للواقع العراقي حيث تعد معلوماته في ذلك الجانب ذات أهمية جيوسياسية بالنسبة لبلده روسيا كدولة كبري تتنافس مع الدول الاستعمارية الكبرى.

٦ –وفيما يخص استناد المستشرق ألكسندر آداموف إلى الكثير من المراجع الأجنبية في سرده للوقائع المختلفة بين جنبات مؤلفه موضوع البحث وهو ما أشار له ألكسندر نفسه من خلال هوامشه وبعض تعليقاته ولأن الباحث محدد بحجم وموضوع دراسة فلا يسعه أن يتناول تلك المراجع أو محاولة ترجمة بعضها.

٧ –أما فيما يتعلق بإشارة المستشرق للسالنامات العثمانية فإن إشارته لها كان إدراكا منه لأهميتها في مؤلفة خاصة أنها تعد واحدة من أهم المصادر الموثوقة للتاريخ الخاص بالولايات العثمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

الهوامش

(١) ولاية البصرة، ترجمة: هاشم صالح التكريتي، ط ١، دار الوراق للنشر، بيروت، ٢٠٠٩ م، ص ٧. أشار مترجم الكتاب الأستاذ هاشم التكريتي بأن المستشرق الروسي ألكسندر آداموف شغل منصب قنصل روسيا في مدينة البصرة خلال الحكم العثماني منذ نهاية القرن التاسع عشر وحتى بداية القرن العشرين وأنه نشر كتابه هذا –للمرة الأولى– في سان بطرسبيرغ في عام ١٩١٢ أي بعد انتهاء مدة عمله كدبلوماسي بصفة قنصل لبلاده في البصرة. فاضل مهدي بيات، السالنامات العثمانية وأهميتها لتاريخ العراق، ص ١، https://www.noor-book.com.

(٢) ألكسندر، آداموف، ولاية البصرة، ص ١٣–٧٩؛ خولة طالب لفتة، ألكسندر آداموف وكتابه ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها قراءة تاريخية، بحث منشور.

(٣) ولاية البصرة، ص ٨٣.

(٤) ولاية البصرة، ص ١٤١.

(٥) ولاية البصرة، ص ٧.

(٦) ولاية البصرة، ص ٨.

(٧) الخريبة: تصغير خربة وهي بضم الخاء، وفتح الراء وسكون الياء أخرها الباء المنقوطة، وذهب الغوري، إلى أنها خزيبة بالزاي لكن ياقوت عد ذلك وهم لا ريب فيه لأن الموضع إلى زمان ياقوت معروف في البصرة بالراء المهملة وقد نسب إليها قوم من الرواة. للمزيد ينظر، جواد نصر الله، دراسات ورؤى في تاريخ، ص ١١–١٢.

(٨) ألكسندر، ص ٣٠١.

(٩) ألكسندر، ص ٣٠١.

(١٠) ألكسندر، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ص ٣٠١–٣٠٢.

(١١) لم تشر إليه المصادر كثيراً فقد اختلف هل هو ذهلي أم وائلي؟ وهو الذي كان يهاجم القطاعات الساسانية في البصرة قبل فتحها. ينظر: الدينوري، الأخبار الطوال، ص ١١.

(١٢) ابن خياط، تاريخ خليفة، ص ٨٦.

(١٣) فتوح البلدان، ج ٢، ص ٤١٨.

(١٤) فيد: بفتح الفاء وسكون الياء، ورد الزعفران قيل سميت نسبة إلي فيد بن حام وهي من مناطق الحاج إلى جهة العراق، وكان الحجاج يودعون أمتعتهم وأثقالهم عند أهلها فإذا عادوا أخذوها مقابل شيء يعطونه لمن يحفظها ومن ينتسب إليها يقال له الفيدي، وينتسب إليها عدد من أهل العلم. للمزيد ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ج ٨، ص ٦١٦؛ جواد نصر الله، دراسات ورؤى في تاريخ البصرة، ص ١٧ هامش ٨.

(١٥) الثعلبية: بفتح الثاء من منازل الطريق إلى مكة، وهي تقع ما بين الشقوق والخزيمية ما يقارب ثلثي المسافة بين الكوفة ومكة ويقال سميت نسبة إلى ثعلبة بن ماء السماء وقيل نسبة إلى ثعلبة بن دودان إذ هو أول من حفرها وينسب إليها بعض أهل العلم. للمزيد ينظر: السمعاني، الأنساب، ج ٣، ص ١٣٥؛ جواد نصر الله، دراسات ورؤى في تاريخ، ص ١٧ هامش ٩.

(١٦) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٩٢.

(١٧) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٩٣.

(١٨) ابن خياط، تاريخ خليفة، ص ٨٥.

(١٩) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٩٠.

(٢٠) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٧، ص ٦.

(٢١) ألكسندر، ولاية البصرة، ص ٣٠٣.

(٢٢) الدساكر، جمع دسكرة والمقصود بها الأرض المستوية، وبناء كالقصور حوله بيوت للأعاجم فيها الشراب والملاهي. الفراهيدي، العين، ج ٥، ص ٤٢٦.

(٢٣) الأنساب، ج ٢، ص ٣٥٤؛ ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، ج ١، ص ٤٣٨.

(٢٤) البلاذري، فتوح البلدان، ج ٢، ص ٤٣٤.

(٢٥) ولاية البصرة، ص ٣٠٣.

(٢٦) ولاية البصرة، ص ٣٠٤.

(٢٧) هو: عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن عامر، أسلم أبو موسى الأشعري بمكة، وقيل إنه هاجر إلى الحبشة بعد إسلامه، ومن ثم رجع مع أهل السفينتين إلى رسول الله- صلى الله عليه وآله وسلم- في زمن خيبر، هذا وقد أنكر البعض أنّ أبا موسى الأشعري قد هاجر إلى أرض الحبشة بعد إسلامه، تعدّدت الآراء في مكان وتاريخ وفاة أبي موسى الأشعري، فقيل: توفي بمكة، وقيل إنه توفي بالكوفة. ينظر: ابن الجوزي، صفوة الصفوة، ص ٢١١؛ ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج ٤، ص ٤٦٢.

(٢٨) ابن عامر: أبو عبد الرحمن عبد الله بن عامر بن كريز صحابي فتح جميع إقليم خراسان وكان واليا في عهد عثمان حتى عزله معاوية كان شريفاً في قومه بارا بهم جوادا كريما من أجود رجال قريش والعرب. ينظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ٢٩، ص ٢٥٠.

(٢٩) الصلاوي، محمد علي، تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان شخصيته وعصره، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٢، ط ١، ص ٢١٠.

(٣٠) المدينة يقصد هنا المستشرق ألكسندر المدينة المنورة.

(٣١) ولاية البصرة، ص ٣٠٤.

(٣٢) ولاية البصرة، ص ٣٠٤.

(٣٣) واقعة الجمل: مَوْقَعَة الجَمَل هي معركة وقعت في البصرة عام ٣٦ هـ بين جيش الإمام علي بن أبي طالب والجيش الذي يقوده طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام بالإضافة إلى عائشة زوج النبي محمد (صلى الله عليه وآله) والتي قيل إنها ذهبت مع الجيش في هودج من حديد على ظهر جمل، وسميت المعركة بالجمل نسبة إلى ذلك الجمل. ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص ٤٩٥.

(٣٤) ولاية البصرة، ص ٣٠٥.

(٣٥) سيف، الفتنة ووقعة الجمل، ج ١، ص ١٠٠–١٢٢.

(٣٦) المقدسي، المطهر بن طاهر المقدسي (ت ٣٥٥ هـ/ ٩٦٦ م) ، البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ج ٥، ص ٢١٢.

(٣٧) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢ هـ/ ١٣١٢ م) ، المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ط ١، ج ١، ص ١٧٣.

(٣٨) سيف، الفتنة ووقعة الجمل، ج ١، ص ١٠٠–١٠٨؛ طه حسين، الفتنة الكبرى، ج ٢، ص ٤٠–٤٥.

(٣٩) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج ١، ص ١٧٣.

(٤٠) مؤسسة الغدير، موسوعة سيرة الإمام علي (عليه السلام) ، القسم السابع، الفصل الثاني، ص ١–٢٠.

(٤١) مقال للسيد يوسف ناصر العلي، شواهد بصرية جامع الإمام علي (عليه السلام) ، منشور في شؤون بصرية، العدد ٢،٢٠٠٥، ص ٦.

(٤٢) المجلسي، بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٣٣.

(٤٣) مؤسسة الغدير، موسوعة سيرة الإمام علي (عليه السلام) ، القسم السابع، الفصل الثاني، ص ١–٢٠.

(٤٤) مؤسسة الغدير، موسوعة سيرة الإمام علي (عليه السلام) ، القسم السابع، الفصل الثاني، ص ١–٢٠.

(٤٥) أما بالنسبة إلى تعريف الخوارج فقد عرفهم الشهرساتي في الملل والنحل، ص ١١٠؛ والأشعري، أبي الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٣، ص ٢٠٧.

وعن بدايتهم ينظر: العقل ناصر، الخوارج، دار الوطن، الرياض، ط ١،١٤١٦ هـ، ص ٢٨.

(٤٦) ولاية البصرة، ص ٣٠٦.

(٤٧) الغصن، سليمان بن صالح، الخوارج نشأتهم فرقهم صفاتهم الرد على أبرز عقائدهم، ط ٢،٢٠١٦، ص ٢٢٠.

(٤٨) ولاية البصرة، ص ٣٠٧.

(٤٩) الطبري، ج ٤، ص ٢٧٧–٢٧٩.

(٥٠) الطبري، ج ٤، ص ٣١٨.

(٥١)عبد العزيز صالح الهلالي، إلقاء الضوء على دور القراء في صفين، مجلة كلية الآداب السعودية، مج ٤،١٩٨٤ م، ص ٧.

(٥٢) الطبري، المصدر السابق، ج ٤، ص ٣١٩.

(٥٣) غالب بن علي عواجي، فرق تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، ط ٤، المكتبة المصرية الذهبية، د. م، ٢٠٠١ م، ج ١، ص ٢٢٧.

(٥٤) غالب بن علي، فرق تنتسب إلى الإسلام، ج ١، ص ٢٢٨.

(٥٥) ولاية البصرة، ص ٣٠٨.

(٥٦) ابن كثير، البداية والنهاية، دار ابن كثير، بيروت، ص ٢٢.

(٥٦) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١٧٦–١٨٠.

(٥٧) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢١٩–٢٢٢.

(٥٨) ولاية البصرة، ص ٣٠٨.

(٥٩) البلاذري، أنساب الأشراف، طبعة القدس، ١٩٣٨، ج ٤، القسم الأول، ص ١٨١.

(٦٠) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٤، ق ١، ص ٢٠٦؛ العلي، أحمد صالح، خطط البصرة، بغداد، ١٩٨٩، ص ٥١.

(٦١) البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٣٤٢.

(٦٢) الخيرو، رمزية، إدارة العراق في صدر الإسلام، بغداد، ١٩٧٨، ص ٩٨–١٠١.

(٦٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٤٣–٣٤٤.

(٦٤) لقد كانت دار الإمارة في الرحبة التي يقال لها رحبة بني هاشم، وكانت تسمى بالدهناء وفيها السجن والديوان وكانت من القصب أي دار الإمارة والمسجد فلم تزل الحال كذلك إلى أن بنى أبو موسى الأشعري المسجد ودار الإمارة باللبن والطين وكان الإمام إذا جاء إلى الصلاة بالناس تخطاهم إلى القبلة. البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٤١.

(٦٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٤٢.

(٦٦) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٤٣.

(٦٧) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٢٢٦.

(٦٨) العلي، أحمد صالح، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، بيروت، ١٩٦٩ م، ص ٤٩.

(٦٩) ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة لايدن، ١٨٦٦ م، ص ٤٥١.

(٧٠) ولاية البصرة، ص ٣٠٨.

(٧١) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٠١؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٩٩.

(٧٣) ولاية البصرة، ص ٣٠٩.

(٧٤) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٣٠٢؛ البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٤٥.

(٧٥) ولاية البصرة، ص ٣٠٩.

(٧٦) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٠٧–٥٠٨.

(٧٧) ولاية البصرة، ص ٣٠٩–٣١١.

(٧٨) ولاية البصرة، ص ٣١١–٣١٢.

(٧٩) الطبري، المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٠٧.

(٨٠) الطبري، المصدر السابق، ج ٥، ص ٥١٣–٥١٩.

(٨١) الطبري، المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٢٥.

(٨٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٢٧٥.

(٨٣) الطبري، المصدر السابق، ج ٥، ص ٥٢٥.

(٨٤) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٣، النجف، ١٩٦٤ م، ص ١١.

(٨٥) الحجاج بن يوسف الثقفي: أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي (٤٠ هـ/ ٦٦٠ م– ٩٥ هـ/ ٧١٤ م)، قائد وسياسي أموي، وُلِدَ ونَشأَ في الطائف وانتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قَلَّدَه عبد الملك بن مروان أمر عسكره. أمره عبد الملك بقِتالِ عبد الله بن الزبير، فزحف إلى الحجاز بجيشٍ كبيرٍ وقتل عبد الله وفرَّق جموعه، فولاَّه عبدُ الملك مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والثورة قائمة فيه، فانصرف إلى الكوفة في ثمانية أو تسعة رجال على النجائب، فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين عامًا. بنى مدينة واسط ومات بها، وأجري على قبره الماء، فاندرس. وكان سَفَّاكاً سفاحا مرعبا باتِّفاقِ مُعْظَمِ المُؤَرِّخِين. عُرف بالمبير أي المُبيد. ينظر: ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج ١٢، ص ١١٨.

(٨٦) ولاية البصرة، ص ٣١٦.

(٨٧) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٣٢٧.

(٨٨) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٣٢٨.

(٨٩) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٩، ص ٩–١٠.

(٩٠) ولاية البصرة، ص ٣١٦.

(٩١) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣٦٤.

(٩٢) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣٦٥.

(٩٣) فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، ص ٢٤٠.

(٩٤) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٣٧١.

(٩٥) العلي، أحمد صالح، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة، ص ١١٠.

(٩٦) ولاية البصرة، ص ٣٢٠–٣٢١.

(٩٧) قحطبة الطائي، قائد شجاع من ذوي الشأن والرأي وهو أحد النقباء الاثني عشر الذين اختارهم محمد بن علي العباسي واستجابوا له في خراسان. ينظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ص ١٣٥.

(٩٨)سفيان بن معاوية: هو سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ولاه أبو العباس الخليفة الأول البصرة في السنة ١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م، وقد حارب الأمويين والموالين إليهم في البصرة بمعارك دامية جداً دامت سبعة أيام ثم تمكن من النصر عليهم. ينظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ص ١٧٤؛ الطبري، تاريخ الطبري، ج ٧، ص ٣٩١.

(٩٩) روجس بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، من الكرماء وقد تولى لخمسة من الخلفاء العباسيين في ولاية السند، وولاية البصرة ثم ولاية أفريقيا حتى توفي فيها عام ١٧٤ هـ/ ٧٧٠ م. ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٢، ص ٣٠٥.

(١٠٠)اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٣، ص ٨٥.

(١٠١) فوزي، العباسيين الأوائل، ط ١، بغداد، ١٩٧٧ م، ص ٦٧.

(١٠٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٥ م، ج ٥، ص ٤٠٦–٤٠٧–٤٣٠.

(١٠٣) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، بيروت، ١٩٧٧ م، ج ١، ص ٤٠.

(١٠٤) ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٣١٠–٣٢٠.

(١٠٥) ولاية البصرة، ص ٣٢٢.

(١٠٦) ولاية البصرة، ص ٣٢٣.

(١٠٧) ولاية البصرة، ص ٣٢٣–٣٢٤.

(١٠٨) إبراهيم بن عبد الله: هو إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي أحد الأمراء الشجعان، والأمراء الأشراف من سلالة آل البيت، يذكر اسمه مقترناً باسم أخيه الإمام محمد النفس الزكية، ويعود ذلك لمشاركتهما في الثورة ضد الحكم العباسي، وكان إبراهيم شاعراً وعالماً بأخبار العرب، وساند أبا حنيفة النعمان وزيد بن علي في محنته الأخيرة ضد الحكم الأموي. ينظر: أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج ٢، ص ٣–٤.

(١٠٩) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، ج ١، ص ١٠٠؛ ولاية البصرة، ص ٣٢٤.

(١١٠) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٧، ص ٦٢٢–٦٣٤.

(١١١) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٧، ص ٦٣٨؛ وكيع، أخبار القضاة، ج ٢، ص ١١٣.

(١١٢) الطبري، تاريخ الطبري، ج ٨، ص ٤٦.

(١١٣) ناجي، عبد الجبار، تاريخ المدن العربية، ص ١٤٣.

(١١٤) الشيخلي، محمد رؤوف، تاريخ البصرة القديمة وضواحيها، البصرة، ١٩٧٢ م، ص ٨٧.

(١١٥) اليعقوبي، كتاب البلدان، النجف، ١٩٥٧ م، ص ٨.

(١١٦) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٣٩.

(١١٧) ولاية البصرة، ص ٣٢٤.

(١١٨) ولاية البصرة، ص ٣٢٥.

(١١٩) أبو السرايا: هو السري بن منصور من ولد هاني بن قبيصة بن هاني بن مسعود الشيباني، ولد عام ١٥٠ هـ في عهد المنصور، ضرب أبو السرايا الدراهم في الكوفة وسير قواته إلى البصرة وواسط ونواحيهما، بل وأكثر من هذا ظن أن أطراف الدولة قد دانت له أو على وشك أن تدين، فأرسل العمال إلى مختلف الجهات لا سيما مدينة البصرة التي كانت تعد من أهم المدن للدولة، وإلى مكة حيث فسد موسم الحج لعام ١٩٩ هـ وإلى اليمن وفارس والأهواز وغلبت رجاله على البصرة والأهواز والمدائن حتى طمع في دخول بغداد نفسها، ولكن ما أن استفحل الخطر، اضطر القائد العباسي الحسن بن سهل إلى استدعاء قائد خراسان وتوجه إلى حرب أبي السرايا وتمكن من هزيمته قرب المدائن وارتد أبو السرايا والطالبيون إلى الكوفة وقاموا بأعمال انتقامية فيها ضد بني العباس، كانت وفاة أبي السرايا في سنة ٢٠٠ هـ. للمزيد ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٠٩؛ الزركلي، الاعلام، ج ٣، ص ٨٢.

(١٢٠) محمد بن إبراهيم: هو محمد بن إبراهيم إسماعيل الديباج بن إبراهيم الشبه بن الحسن بن الحسن بن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، ولد في عام ١٧٣ هـ ولقب بذلك لأن كان يلفظ القاف طاء لرده في لسانه، توفي في سنة ١٩٩ هـ/ ٨١٤ م. ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٥، ص ٤٦٤.

(١٢١) محمد زيد: هو محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب. للمزيد ينظر: ابن عنبة، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، ص ٢٨٦-٢٨٧.

(١٢٢) كتاب الخراج، طبعة القاهرة، ١٣٠٢ هـ، ص ٣؛ ينظر: البلاذري، البلدان، ص ٣٦٥.

(١٢٣) التبصر بالتجارة، ص ٤.

(١٢٤) المقدسي، أحسن التقاسيم، ص ١٥٨.

(١٢٥) التبصر بالتجارة، ص ٦-١٠.

(١٢٦) ولاية البصرة، ص ٣٢٥.

(١٢٧) ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٦٤.

(١٢٨) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٠٩.

(١٢٩) للمزيد ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٣٠٢.

(١٣٠) الزط: ثورة الزط (٨١٠-٨٣٥ م) هي ثورة قام بها الزط ضد الدولة العباسية في جنوب العراق بداية القرن التاسع الميلادي. استمرت الثورة من عهد المأمون حتى مدة حكم المعتصم بالله. الطبري، تاريخ الطبري، ج ٩، ص ٩.

(١٣١) ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٣٠٥.

(١٣٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٣٤٥.

(١٣٣) عين زربه: بلد بالثغر من نواحي المصيصة وهذه المدينة على شاطئ نهر جيحان من ثغور الشام قريبة من طرطوس. ينظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١، ص ٢٥٣.

(١٣٤) ولاية البصرة، ص ٣٢٦.

(١٣٥) ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٢١٠.

(١٣٦) ولاية البصرة، ص ٣٢٧.

(١٣٧) ولاية البصرة، ص ٣٢٧.

(١٣٨) للمزيد ينظر: ابن النديم، الفهرست، تح: رضا تجدد، طهران، ١٩٧١ م، ص ٨١؛ ابن خلدون، المقدمة، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨ م، ص ٤٣٤.

قائمة المصادر والمراجع

أولا– المصادر الأولية

١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت، ١٩٦٥ م.

٢. ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، د. ت.

٣. أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٣.

٤. البلاذري، أنساب الأشراف، طبعة القدس، ١٩٣٨ م.

٥. البلاذري، فتوح البلدان، تح: صلاح الدين المنجد، لجنة البيان العربي، نشره مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٧ م.

٦. الجاحظ، التبصّر بالتجارة، تح: حسن حسني، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢١ م.

٧. ابن الجوزي، صفوة الصفوة، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

٨. ابن خلدون، المقدمة، تح: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٨ م.

٩. ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٩. خليفة بن خياط، تاريخ خليفة، بيروت، ١٩٧٧ م.

١٠. الدينوري، الأخبار الطوال، تح: عبد المنعم عامر، ط ١، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ١٩٦٠ م.

١١. الزبيدي، تاج العروس،، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٥ م.

١٢. ابن سعد، الطبقات الكبرى، تح: محمد عبد القادر عطا، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠ م.

١٣. السمعاني، الأنساب، تقديم: عبد الله البارودي، ط ١، الجنان للطباعة، بيروت، ١٩٨٨ م.

١٤. الشهرساتي، الملل والنحل، صححه: أحمد فهمي محمد، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢ م.

١٥. الضبي، سيف بن عمر، الفتنة ووقعة الجمل، تح: أحمد راتب عرموش، ط ٧، دار النفائس، ١٩٩٣ م.

١٦. الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك) ، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ م.

١٧. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.
١٨. ابن عنبة، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب. تح: مهدي رجائي، ط ١، مطبعة المرعشي النجفي، إيران، ١٩٦٧ م.
١٩. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ط ١، المطبعة الحسينية المصرية، د. ت.
٢٠. الفراهيدي، العين، تح: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ط ٢، مؤسسة دار الهجرة، قم، ١٩٨٩ م ابن كثير، البداية والنهاية، دار ابن كثير، بيروت د. ت.
٢١. المجلسي، بحار الأنوار، ط ٣، دار إحياء التراث، لبنان، د. ت.
٢٢. المقدسي، البدء والتاريخ، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد.
٢٣. ابن النديم، الفهرست، تح: رضا تجدد، طهران، ١٩٧١ م.
٢٤. وكيع، أخبار القضاة. صححه: عبد العزيز مصطفى المراغي، ط ١، المكتبة التجارية الكبرى، ١٩٤٧ م.
٢٥. القاضي أبو يوسف، كتاب الخراج، طبعة القاهرة، ١٣٠٢ هـ.
٢٦. ياقوت الحموي، معجم البلدان، طبعة لايدن، ١٨٦٦ م.
٢٧. اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، النجف، ١٩٦٤ م.

ثانياً– المراجع والدراسات الحديثة

١. الخيرو، رمزية، إدارة العراق في صدر الإسلام، بغداد، ١٩٧٨.
٢. الزركلي، الإعلام، ط ٥، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠ م.
٣. الشيخلي، محمد رؤوف، تاريخ البصرة القديمة وضواحيها، البصرة، ١٩٧٢ م.
٤. الصلاوي، محمد علي، تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفان شخصيته وعصره، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٢، ط ١.
٥. طه حسين، الفتنة الكبرى، مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧ م.
٦. العقل ناصر، الخوارج، دار الوطن، الرياض، ط ١،١٤١٦ هـ.
٧. العلي، أحمد صالح، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، بيروت، ١٩٦٩ م.

٨. العلي، أحمد صالح، خطط البصرة، بغداد، ١٩٨٩.

٩. العلي، السيد يوسف ناصر، شواهد بصرية جامع الإمام علي (عليه السلام) ، منشور في شؤون بصرية، العدد ٢،٢٠٠٥.

١٠. عواجي، غالب بن علي، فرق تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، ط ٤، المكتبة المصرية الذهبية، د. م، ٢٠٠١ م.

١١. الغصن، سليمان بن صالح، الخوارج نشأتهم فرقهم صفاتهم الرد على أبرز عقائدهم، ط ٢،٢٠١٦.

١٢. فلهاوزن، تاريخ الدولة العربية، نقله عن الألمانية وعلق عليه: محمد عبد الهاي أبو ريده، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨ م.

١٣. فوزي، العباسيين الأوائل، ط ١، بغداد، ١٩٧٧ م.

١٤. ألكسندر، آداموف، ولاية البصرة في ماضيها وحاضرها، ترجمة: هاشم صالح الذكريني، ط ١، دار الوراق للنشر، بيروت، ٢٠٠٩ م.

١٥. مؤسسة الغدير، موسوعة سيرة الإمام علي (عليه السلام) ، القسم السابع، الفصل الثاني.

١٦. ناجي، عبد الجبار، تاريخ المدن العربية، ط ١، شركة المطبوعات للتوزيع، ٢٠٠١ م.

١٧. النصر الله، جواد كاظم، دراسات ورؤى في تاريخ، دار الفيحاء، ٢٠١٣ م.

١٨. الهلالي، عبد العزيز صالح، القاء الضوء على دور القراء في صفين، مجلة كلية الآداب السعودية، مج ٤،١٩٨٤ م.

List of Sources and References

First. Primary Sources:

1-Ibn Al-Athir, Al-Kamil fi al-Tarikh, Beirut, 1965 AD.

2-Ibn al-Athir, Al-Labab in Tahdhib al-Ansab, Dar al-Sadr, Beirut, D. T.

3-Abul Hasan al-Ash'ari, The Articles of Islam and the Difference of the Worshippers, ed: Muhammad Muhyiddin Abdel Hamid, The Egyptian Renaissance Library, 1993.

4-Al-Baladhari, Ansab al-Ashraf, Jerusalem edition, 1938.

5-Al-Baladhari, Futuh al-Baladan, ed: Salah al-Din al-Munajid, Al-Bayan al-Arabi Committee, published by the Egyptian Renaissance Library, Cairo, 1957.

6-Al-Jahiz, Al-Tabasir al-Tajarah, ed: Hassan Hosni, Hindawi Foundation, 2021 AD.

7-Ibn al-Jawzi, Safwa al-Safwa, Dar al-Kutub al-Alamiya, Beirut, D. T.

8-Ibn Khaldun, Al-Muqaddima, ed: Suhail Zakkar, Dar al-Fikr, Beirut, 1988.

9-Ibn Khalkan, Fayyat al-Ayyan and Anba'a al-Zaman, ed: Ihsan Abbas, Dar al-Sadr, Beirut.

10-Khalifa ibn Khayyat, History of Khalifa, Beirut, 1977 AD.

11-Al-Dinouri, Al-Akhbar Al-Tawil, Tah: Abdel Moneim Amer, 1st edition, Ministry of Culture and National Guidance, Egypt, 1960.

12-Al-Zubaidi, Taj Al-Arous, Dar Al-Fikr for Printing, Publishing and Distribution, Beirut, 1985 AD.

13-Ibn Saad, Al-Tabaqat al-Kubra, ed: Muhammad Abdul Qadir Atta, T1, Dar al-Kutub al-Alamiya, Beirut, 1990 AD.

14-Al-Samaani, Genealogy, ed: Abdullah al-Baroudi, T1, Al-Jinan for Printing, Beirut, 1988 AD.

15-Al-Shahrisati, Al-Mallal al-Nahl, corrected by: Ahmed Fahmi Mohammed, T2, Dar al-Kutub al-Alamiya, Beirut, 1992.

16-Al-Dhabi, Saif bin Umar, Al-Fitna and the Battle of Al-Jamal, ed: Ahmed Ratib Armoush, T. 7, Dar Al-Nafaas, 1993 AD.

17-Al-Tabari, Tarikh al-Tabari (History of Nations and Kings), T1, Dar al-Kutub al-Alamiya, Beirut, 1987 AD.

18-Ibn Abdul Barr, Al-Istiqaba‘ fi ma'rifa’ al-Ahlaq, Dar al-Kutub al-Alamiya, Beirut, D. T.

19-Ibn Anba, ‘Umdat al-Talib in the genealogy of the family of Abu Talib. Tahh: Mehdi Raja'i, 1st edition, al-Marashi al-Najafi Press, Iran, 1967 AD.

20-Abu al-Fida, Al-Mukhtasir fi Akhbar al-Bashar, T. 1, Al-Husseiniya Al-Masriya Press, D. T.

21-Al-Farahidi, Al-Ain, ed: Mahdi al-Makhzoumi and Ibrahim al-Samarrai, 2nd edition, Dar al-Hijra Foundation, Qom, 1989 A.D. Ibn Kathir, al-Bidayah wa al-Nihya, Dar Ibn Kathir, Beirut, D.T.

22-Al-Majlesi, Bahar al-Anwar, vol. 3, Dar Ihya al-Herath, Lebanon, D.T.

23-Al-Maqdisi, The Beginning and History, Library of Religious Culture, Port Said.

24-Ibn al-Nadim, al-Fahrist, ed: Reza Tajdad, Tehran, 1971.

25-Kayyah, Akhbar al-Qudah. Corrected by: Abd al-Aziz Mustafa al-Maraghi, T1, Kobra Commercial Library, 1947 AD.

26-Judge Abu Yusuf, The Book of Kharaj, Cairo edition, 1302 AH.

27-Yaqut al-Hamawi, Lexicon of Countries, Leiden edition, 1866 AD.

28-Al-Yaqoubi, History of Al-Yaqoubi, Najaf, 1964 AD.

Second: References and recent studies

1-Al-Khairu, Ramziya, The Administration of Iraq in Sadr al-Islam, Baghdad, 1978.

2-Al-Zarkali, Al-Islam, T5, Dar Al-Alam Al-Malayeen, Beirut, 1980.

3-Al-Sheikhli, Muhammad Rauf, History of Ancient Basra and its Environs, Basra, 1972.

4-Al-Salawi, Muhammad Ali, Taysir al-Karim al-Manan in the biography of Uthman ibn Affan, his character and era, Islamic Distribution and Publishing House, Cairo, 2002, T1.

5-Taha Hussein, The Great Fitna, Hindawi Foundation, 2017.

6-Al-Aql Nasser, Al-Khawarij, Dar Al-Watan, Riyadh, T1, 1416 AH.

7-Al-Ali, Ahmed Saleh, Social and Economic Organisations in Basra in the First Century AH, Beirut, 1969.

8-Al-Ali, Ahmed Saleh, Plans of Basra, Baghdad, 1989.

9-Al-Ali, Mr Yusuf Nasser, Visual evidence of the Imam Ali Mosque (peace be upon him), published in Basra Affairs, No. 2, 2005.

10-Awaji, Ghalib bin Ali, Teams that belong to Islam and the position of Islam towards them, T4, Golden Egyptian Library, D.C., 2001.

11-Al-Ghosn, Sulaiman bin Saleh, Al-Khawarij, their origins, their teams, their characteristics, and the response to their most prominent doctrines, 2, 2016.

12-Fellhausen, History of the Arab State, translated from German and commented on: Muhammad Abd al-Hai Abu Rida, Committee for Authorship, Translation and Publishing, Cairo, 1968.

13-Fawzi, The First Abbasids, 1st edition, Baghdad, 1977.

14-Alexander, Adamov, Basra Province in its past and present, translated by: Hashim Saleh Al-Dhikrini, T1, Dar Al-Warraq for Publishing, Beirut, 2009.

15-Al-Ghadeer Foundation, Encyclopedia of the Biography of Imam Ali (peace be upon him), Section VII, Chapter II.

16-Naji, Abdul Jabbar, History of Arab Cities, T1, Printing Company for Distribution, 2001 AD.

17-Al-Nasrallah, Jawad Kazim, Studies and Visions in History, Dar Al-Faihaa, 2013.

18-Al-Hilali, Abdulaziz Saleh, shedding light on the role of readers in Siffin, Journal of the Saudi College of Arts, Vol. 4, 1984.